آليَّاتُ التأثير والإقناع الحجاجيّ في الخطاب الشّعري
(«رائيةُ» القُطاميّ نموذجًا) (١)

دكتور/ أيمن عبد الحفيظ محمد عياد
كلية الآداب – جامعة طنطا

مقدِّمـــــة:

يتناول هذا البحثُ الذي ينضوي تحت عنوانه: (آليات التـأثير والإقنـاع الحجاجيّ في *الخطاب* الشعري – رائية القُطاميِّ نموذجًا-) تحديد وسائل الحشد (أو التشكيل) الصياغي والتصويري التي اتكأ عليها الشاعر فـي رائيته المدحيَّة ، والكشف عن فاعليتها ضمن سياق القصيدة – بوصـفها نصًّا حجاجيًّا، وبناءً لغويًّا مدعومًا بأدوات ووسـائل تُوظَّـفُ لغـرض التأثير والإقناع؛ وقد بنى الباحث منهجه «التحليليَّ» علـى فَرضـيَّاتِ القراءة ومايترتَّب عنها من مُنطلقاتٍ فكرية وتصوُّرية تتوافق مع طبيعـة النصِّ المدروس – الذي تكمن فيه الأنساق الحجاجيـة -، وتنظـر فـي خصائصه، وتحدد خطواته وآليات النظر فيه.

---

(١) هو: عمرو بن شييم بن عمرو (التغلبي) من فحول الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين، وقد قَرَنَهُ ابن سلّام (بالبَعيْثِ المُجَاشعيِّ) وكثير عزَّة، وذي الرُّمة، وكان شاعرًا أمويًا فحلًا رقيق الحواشي، حُلْوَ الشِّعر، والأخطلُ أبعدُ منه ذكرًا وأمتن شعرًا؛ عاش مع عشيرته في البادية وامتزج بهم وسجَّلَ أمجادهم وشاركهم حروبهم، وعاصر الوليد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان. له ديوانٌ مجموعٌ ومحقق. انظر فـي ترجمته: ابن قُتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م ص٧٢٣، والمرزباني (محمد ابن عمران): الموشَّح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدَّة أنـواع مـن الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، (د. ت)، ص٢٠٨؛ وأبـو الفـرج الأصـفهاني: الأغاني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٧/٢٤- ٥٠؛ وعبد القـادر البغـدادي: خزانـة الأدب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٧، ٢/ ٣٧٠- ٣٧٢؛ وراجع: القُطاميّ (عمرو بن شُييم): ديوانه، بتحقيق: محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص١٤٧- ١٥٠.

وتكمن أهميةُ البحث في كشفه النقاب عن وجود وشائج تواصلية بين النصوص الشعرية التراثية وبين ما يتبناه الحراك النقدي الحديث من وسائل (تثاقُفيَّة) طوَّرت من النظرة النقدية وآليات التحليل النصِّي، وقرَّبت المسافة بين تداولية اللغة والحجاج ضمن جدلية (اللغة والفكر والواقع).

ويتَّخذُ الخطاب الشعري عند القُطامي- من خلال قصيدته – نوعين من التواصل الإقناعي (أو باعثين للحجاج)، أحدهما: عن طريق الوسائل المباشرة، التي تعتمد الحجَّة المنطقية اللغوية وسيلة استدلالية لإقناع المُخاطَب من خلال تقديم المبررات الكاملة للتأثير، وتنطلق من الجانب الدلالي (أو التداولي) الذي يهتم بالبعد الاستعمالي أو الإنجازي للكلام، ويأخذ بعين الاعتبار (المتكلِّم والسياق)[1]؛ والآخر: عن طريق التخييل- أو الجانب الجمالي- باستخدام أساليب التعبير غير المباشر، كما في البلاغة المجازيَّة وغير المجازية وتوظيفها حجاجيًّا.

ولا شك في أن الموقف الشعري هو الذي يؤثر في اختيار طرق الاستدلال، أو اختيار الفرضيات، وما يترتب عليه من تداخُلٍ بين الغاية الفنية التخييليَّة، والغاية التواصُلية (التداولية)، وامتزاج الجانب المنطقي اللساني مع الجانب اللغويِّ النفسيِّ من أجل التأثير والإقناع؛ إذ يرى (العمريّ) أن بلاغة الإقناع تقابلُ بلاغة الخطاب التخييلي وتتداخلُ معها[2]، ومن ثمَّ يكون (الإقناعُ) هو مجال البحث الحجاجي كونه محكومًا بالوسائل والآليات التي من شأنها أن تُحرِّك المعنى صوب الفعل والتغيير بما ينسجم مع المقام، وتتطلَّبُهُ مقاصدُ النصِّ أو الرؤية التي يسعى إلى إرسائها المبدع.

(١) إدريس مقبول: الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٠، ص٨.

(٢) محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشَّرق، المغرب، ٢٠٠٢، ص٦.

١ - عودة إلى (المصطلح والمفهوم)

شاع في النتاج البلاغي واللساني العربي الحديث استعمال لفظ «الحجاج» مقابلًا عربيًّا للمصطلح Argumentation.وهو المصطلح الذي قَرّ «عَلَمًا» على «نظرية» تُعنَى بـ«دَرْس تقنيات الخطاب التي مِنْ شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرَض عليها من أُطروحات، أو أن تَزيد في درجة ذلك التسليم»، على التحديد الذي عيَّنه «برلمان» Perelman وتيتيكاه Tyteca في مؤلفهما الرائد المشترك «مصنّف في الحجاج»[١] Traité de l'argumentation الذي صدرت طبعته الأولى في سنة ١٩٥٨م. «وكان لهذا الكتاب ما بعده، فانتشر انتشارًا واسعًا في العالم، ومنذ ذلك الوقت أصبح الباحثون والدارسون يعنون بموضوع الحجاج، ويؤلفون فيه»[٢] . وصار التناول الحجاجي للنصوص الإبداعية «مسارًا نقديًّا قارًّا بعد صدور مصنَّفاته التنظيرية التي أصَّلتْ له»[٣].

وقد قدّما في كتابهما هذا تفاصيلَ وتقسيماتٍ لنظرية «الحجاج» هذه، من حيث أُطُر الحجاج، ومُنطلقاته، ويقينياته[٤]، واعتدَّا أن تلك النظرية تمثّل «البلاغة الجديدة»؛ من حيث إنها تُولي المكوِّن الإقناعي – أو الوظيفة الحجاجية- للتواصل اللغوي بقنواته المتعددة الحظَّ الأكبر من الاهتمام، بخلاف «البلاغة القديمة» التي كانت تُعنى في المقام الأول بـ«جماليات الخطاب»، وما تُحقّقه من «إمتاع»[٥].

---

(١) ينظر: عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٢٧.

(٢) صالح بن عبد الله التويجري: الحجاج في كافوريات المتنبي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (٤٥)، ٢٠١٧م، ص٣٣٦.

(٣) أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة والبلاغة، مجلة فصول، العدد (١٠١)، خريف ٢٠١٧م، ص٣٣٩.
وقد ظهرت كتب وبحوث كثيرة مستقلة تحمل «الحجاج»عنوانًا لها، كما ظهرت كتب تضم بحوثًا متنوعة فيه، مثل: كتاب «التحليل الحجاجي للخطاب»، بإشراف د. أحمد قادم، ود.سعيد العوادي، وكتاب «الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية» تحرير د.حافظ إسماعيلي عُلْوي ، وغيرهما كثير وافر.

(٤) انظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، ٢٠٠١م. ص ١٢.

(٥) انظر: أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة والبلاغة ص٤٠٣، ود. محمد البقالي: المقاربة الحجاجية لكتابات الجاحظ، عالم الفكر، العدد ١٧٣، يناير ٢٠١٨م، ص٨٨، ود. محمد مشبال: النص الأدبي القديم من الشعرية إلى البلاغة الحجاجية (ضمن كتاب «التحليل الحجاجي للخطاب»)، ص٢٦٢.

وقد قسم «برلمان» و«تيتيكاه» الحجج التي يشتمل عليها التواصل اللغوي تقسيمات أساسية، تنبثق منها تقسيمات فرعية. ومنها[١]:

١- الحجج شبه المنطقية:

وهي الحجج الشبيهة بالاستدلالات المنطقية، كالتناقض، والتعدية، وتقسيم الكل إلى أجزاء، ودمْج الجزء في الكل... إلخ.

٢- الحجج المؤسَّسَة على بنية الواقع:

وهي الحجج التي تطرح تفسيرًا وتوضيحًا للأحداث ولما يربط بينها من علاقات، مثل: الحُجّة السببية والبراجماتية، وحجّة السُّلْطة، وغيرها.

٣-الحجج المؤسِّسَة لبنية الواقع:

وهي حجج «تربطها صلة وثيقة بالواقع، ولكنها لا تتأسس عليه، ولاتتبني على بنيته، وإنما هي التي تؤسِّس هذا الواقع، وتبنيه، أو على الأقل تُكمّله، وتُظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه، أو تجلّي ما لم يتوقّع من هذه العلاقات، وما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوّناته»[٢]. وذلك مثل تأسيس هذا الواقع عبر المحاججة بحالات خاصة، أو عبر التمثيل (التخييل).

وليست تقتصر (العملية) الحجاجية، على الخطاب النثري فقط، بل «إن الحجاج قد يحضر في الشعر حضوره في النثر، والشاعر قد يضطلع بوظيفة المدافع عن الفكرة المحتجّ لها، تمامًا كالخطيب، أو السياسي»[٣].

هذا، وقد استعمل المصطلح argumentation استعمالًا مزدوجًا في الأعمال النقدية ليدلّ على «النظرية»، وعلى (عملية) «المحاجّة» نفسها[٤].

---

(١) انظر في تفصيل القول في ذلك: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج ص٤١- ٦١، ود. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠١م. ص١٩١-٢٥٥.

(٢) د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي ص٢٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٢.

(٤) انظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج ص١٣.

وأما لفظ «الحجاج» في المعجم العربي، فهو يرجع إلى الجذر «ح ج ج»، الذي تدور استعمالاته حول معنى (محوري) واحد، هو «تجوُّف كهفي صُلْب أو متين (يحمي ضعيفًا في داخله)» (١).

ثم كان قولهم: «الحُجّة: البرهان، وقيل: الحُجّة: ما دُفع به الخصم... [أو] الوجه الذي يكون به الظَّفرُ عند الخصومة»(٢)؛ وذلك لأن «الحُجّة»- بهذا المعنى«كأنها ظَرْف قويٌّ صُلْب للرأي يحفظه ويدعمه»(٣).

ومن هذا جاء قولهم «حاجّه» و«حاجَجَه» «حجاجًا»و «مُحاجّة»: إذا بادله حُجّة بحجة، حتى «يَحُجّ» أحدُهما الآخَرَ، أي: يغلبه بحُجّته(٤).

الحجاجُ- إذن – هو منطقُ اللغة، وهو الأدلَّة التي تُقَدَّم كي تخدم نتيجة معيَّنة، حيث يرى (ديكرو) في الحجاج فعلاً لُغويًّا خاصًا؛ بمعنى أن اللُّغَةَ تحملُ بشكلٍ ذاتيٍّ وجوهريٍّ وداخليٍّ وظيفة حجاجيَّة، وأن هذه الوظيفة لها مؤشراتٌ في بنية الجُمل، والأقوال نفسها، وحاضرة في كل المستويات اللغوية، وذلك بوصفه ظاهرةً لغوية، وليس بوصفه ظاهرة منطقية أو بلاغية.

وقد طوَّر تلامذته هذه الرؤية من خلال سعيهم إلى اكتشاف منطق اللغة، أو القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكَّم في تسلسل الأقوال وتتاليها وتتابعها بشكلٍ متنامٍ وتدريجيٍّ. ومن هنا تكمن أهمية الحجاج اللغوي وشموليته وهيمنته، وأهمية دراسته وإبراز سماته وخصائصه ومكوناته، في كونه يؤدي وظيفة أساسية من وظائف اللغة.

أما الحجاج البلاغي- كما يعرِّفه برلمان- فهو يتمثَّل في مجموعة من التقنيات الخطابية الموجَّهة لإقناع الجمهور الخاص أو الكلّي بالآراء والقضايا المعروضة عليه، بغاية الإذعان والقبول والإقناع(٥). كما أن للخطاب الحجاجي منطلقات ومقدمات يقبلها، ويمكنه أن يُسلِّم بها، أو يتأثر بها، أو يذعن إليها وسوف نتخيَّر في تحليلنا للنصِّ من

(١) د. محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (ح ج ج) ٣٧٦/١.

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب (ح ج ج) ٧٧٩/٢.

(٣) د.محمد جبل: المعجم الاشتقاقي (ح ج ج) ٣٧٨/٢.

(٤) انظر: لسان العرب (ح ج ج) ٧٧٩/٢.

(٥) أبو بكر العزّاوي: الحجاج في اللغة، (ديكرو وبيرلمان أنموذجًا)، ص٤٠٠- ٤٠٤. وراجع للكاتب نفسه: اللغة والحجاج، الدار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء ٢٠٠٦م؛ و«الخطاب والحجاج»: مؤسسة الرحاب، بيروت ٢٠٠٧؛ و«حوار حول الحجاج»: دار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.

آليات الحجاج اللساني والبلاغي ما يتواءم مع مضامينه الإبداعية والغاية التي يرمي إليها.

٢ - القصيدة: مضمونها ومحاورها الحجاجية

استهلّ «القطامي» قصيدته بمقدمة طللية معتادة [٢- ١٣]. ثم انتقل إلى وصف رحلته مع صاحبيه في البيداء وتسلِّيه بالخمر، ووَصْف الإبل المرتَحل عليها، ومركبٍ لنساء حسان صادفنه في رحلتهم تلك [١٤- ٢٩]. ثم يغادر الشاعر مقدّمته الطللية تلك ليبثَّ قَلَقَه من حوادثَ تعتري قبائل«مَعَدّ» التي تنتمي إليها قبيلتُه (تغلِب) وتَصْدع وحدتها، ليدلف من ذلك إلى مدح «قريش» مستحثًّا إياها على لأْم هذا الصدع [٣٠- ٣٧]. ثم ينتقل إلى الموضوع المحوري في قصيدته، وهو دعوة قبيلته وأخواتها من القبائل المعدّية إلى الوحدة [٣٨- ٥٣].

ويشفع الشاعرُ ذلك بدعوة قبيلة «كلب» خاصة إلى الوحدة مع قبيلته، مفتخرًا بقبيلته ورجالاتها عبر التاريخ [٥٤- ٧٤]. ثم يشرع «القطامي» في التثريب على قبيلة «قضاعة» لتخليها عن الانتساب إلى «نزار بن مَعَدّ» [٧٥- ٨٨]. ثم يمدح عبد الملك بن مروان في أربعة أبيات [٨٩- ٩٢]، ويعود بعدها إلى التثريب على «قضاعة» في دعوى انتسابها إلى اليمن [٩٣- ٩٥]. ثم يختم قصيدته بالعودة إلى الفخر بقبيلته مرّة أخرى [٩٦- ١٠٠].

وهاكم بيان ما أجملته:

فأما المقدمة الطللية التي اقتفى فيها «القُطامي» التقليد الشعريَّ العربي القديم، فقد استهلّها بقوله:

١ - أَمنْ طَرَب بكيتَ وذكْر أهل وللطَّرب المُتاح لَكَ ادّكارُ[(١)]

فقد أفضى تذكُّره للمحبوبة ، وأهلها، ومنازلها، إلى إصابته بـ«هِزّة»، أعقبها بكاءٌ جرّاء ذلك؛ وهو ما يطلق عليه مسمَّى «العتبة الحجاجيَّة» التي تستدعي مرارة البَيْن ومفارقات الأحداث، حين يبدأ رحلته مع الماضي بحثًا عن الأمل المفقود في

(١) جاء في شرح السُّكَّريّ: «الطرب: خفّة تأخذ من فرح أو حزن. المتاح: المقدَّر لك» [ص٣٣٩]. والادّكار: التذكّر.

الحاضر في مشهد الأطلال رمز الذكرى بعد رحيل الظّاعنين، وما تبقّى من رائحة المكان.

ثم شرع الشاعر يصف منازل الأحبّة بعد رحيلهم عنها، فإذا هي قد غدتْ أطلالاً مُقفِرةً خاوية تُنكرها العين، وإذا بقطعان الظباء، والأبقار، والنعام (ذكرانه وإناثه) وقد استوطنتها، واطمأنّ لها المُقامُ بها، فأطلقتْ أصواتها في أجوائها، وغدت الأبقار تذرعها مثنى وفُرادى تتبعها صغارها، كأنها سربُ خيل تتبعه المهار!!

٢- وأطلالٌ عَفَتْ من بعد أُنس ودارُ الحيّ منكَرةٌ قفارُ
٣- خَلَتْ غيرَ الظباء بها وعين وظِلْمان النعام لها عرارُ[١]
٤- فإنَّ بكلّ مَحْنيَة وسَفْح مقابلَ منظر منها صوارُ[٢]
٥- خواذلُ من مصاحبة وفَرْد كَبُلْق الخيل تَتبعُها المهارُ[٣]

ثم جعل يذكر ما تبقّى من منازل الأحبّة؛ فذكر حواجز التراب المتهدّمة التي تحجز الماء، والأوتاد البالية التي تُشدّ إليها الدواب، ورماد الحطب، والأحجار المُسْوَدَّة التي توضع عليها قدور الطعام. ثم راح يذكر ساحات تلك المنازل التي كانت ممشًى لنساء الحي الجميلات المترفات المتثاقلات في مشيهنّ، بوجوههن البرّاقة، وتكاسلهنّ عن البُكور:

٦- وقد دَرَسَتْ سوى ملثوم نُؤْي وآريٍّ تنصّفَهُ الغُبارُ[٤]
٧- ومنه جذْمةٌ خَلَقٌ مُحيلٌ كأنّ بقيةً منها جدارُ[٥]

---

(١) في شرح السُكّري: «العِرار: صوت النعام الذكر» [ص٣٣٩]. و«العين»: بقر الوحش، و«الظِّلمان»: جمع ظَليم، وهو الذَّكَر من النعام [ينظر: اللسان (ع ي ن) ٣١٩٧/٤، و(ظ ل م) ٤/ ٢٧٦٠.

(٢) في شرح السُكّري أن «المحنية»ما انعطف من الوادي، و«السَّفح» أسفل الجبل، و«مقابل» حِذاء، حيث ما قابلت نظرك رأيت صوارًا [ص٣٣٩] . و«الصوار» القطيع من البقر [ينظر: اللسان (ص و ر) ٤/ ٢٤٢٤ .

(٣) في شرح السُكّري: «مصاحبة: معها إلفها، جعلها كالبُلْق لأن أسْوُقها وخدودها سود» [ص٣٤٠] .

(٤) في الشرح: «النُّؤْي: الحاجز حول الخيمة من التراب كي لا يدخلها سيل. تنصّفه: صار إلى نصفه» [ص٣٤٠]. و«الآريّ»: الوتد الذي تُشدّ إليه الدابة. و«الملثوم» المتكسِّر [ينظر : اللسان (أري) ١/ ٦٨، و(ل ث م) ٥/ ٣٩٩٦].

(٥) في الشرح: «يقول: من هذا الآري قطعة خَلَق كأنها جدار. مُحيل: أتى عليه الحَوْل» [ص ٣٤٠].و«الجذمة»: القطعة من الحبل [ينظر: اللسان (ج ذ م) ١/ ٥٧٨].

٨- وأَورقُ كالحمامَـــــةِ مُقْـــــشعرٌّ وشُـــــعْثٌ شـــــجَّجَتهنَّ الفهـــــارُ[١]
٩- ومُحتَـــدَمُ القُـــدور علـــى ثـــلاث كـــأنَّ مناكـــبَ الأحجـــار قـــارُ[٢]
١٠- وملعـــبُ رَبْـــرب أُدْم هِجـــان تَـــأوَّدُ عنـــد مـــشيتِها انفتـــارُ[٣]
١١- بـــوارقُ تَرقُـــدُ الـــصَّبَحات خُـــرْدٌ بهـــنَّ من السِّنات ضُحـــى انبهـــارُ[٤]

ويختم القطامي هذه المقدمة الطللية بمناداة رسوم منازل الأحبـة؛ فـلا تجيبـه؛ فينصرف عنها يائسًا، وقد تحدّر الدمع من عينيه في صورة تشخيصية حجاجية تجمـع بين عفاء الأثر، ونداء الرسوم الصامتة في سطورها المعجمة التـي لا تنطـق. ويُولَـدُ المعنى مسكونًا بحضور الرَّمز وغواية المجاز ووعي اللغة التي تكـشف عـن رغبـة متجذرة تستعيد حضورها في الكون وتُعيدُ الإنسان إلى وحدته المفقودة.

١٢- ونادينـــا الرُّســـومَ وهُـــنَّ صُـــمٌّ ومَنطِقُهـــا المعـــاجمُ والـــسِّطارُ[٥]
١٣- وكان اليـــأسُ أجمـــلَ فانـــصرفنا وَدمـــعُ العـــينِ أَلبَثُهُ انحـــدارُ[٦]

---

(١) في الشرح: «الفهار» جمع الفِهْر، وهو الحجر المدوَّر. و«مقـشعر»: متلبِّـد. و«الـشعث»: الأوتـاد [ص٣٤٠]. و«الأورق»: الرماد؛ من «الوُرْقة»: سواد في غُبْرة [ينظر: اللسان (و ر ق) ٤٨١٦/٦].

(٢) في الشرح: «احتدمت القِدْر: غلت. محتدم: موضع النار على ثلاث، يعني: الأثافي [= الأحجـار التـي توضع عليها القدور]» [ص٣٤٠].

(٣) في الشرح: «رَبْرب: جماعة بقر؛ استعاره للنساء» [ص٣٤١]. و«الهجان»: البيض الكِرام مـن الإبـل ونحوها. وامرأة هِجان: كريمة الحَسَب. و«التأوُّد» التثنِّي؛ تأودت المرأة في قيامها: إذا تثنَّت؛ لتثاقلها. و«الانفتار»أي: الانكسار والضعف [ينظر: اللسان (هـ ج ن) ٤٦٢٥/٦، و(أود) ١/ ١٦٩، و(ف ت ر) ٣٣٤١/٥].

(٤) في الشرح: «بوارق: تبرُق وجوههنّ. الصبحات: جمع صَبْحة...يقـول:إذا مـشت ضـحى انبهـرت» [ص٣٤١].و«الخُرُد» من النساء: البِكْر الحَيِيَّة، جمع خريدة. و«السِّنات»: جمع سِنَة؛ وهي النّعاس مـن غير نوم. و«الانبهار»: تتابُع النَّفسِ من الإعيـاء. [ينظـر: اللـسان (خ ر د) ٢/ ١١٢٨، و(و س ن) ٤٨٣٩/٦، و(ب هـ ر) ٣٦٩/١].

(٥) في الشرح: «المعاجم: كتب مُعجمة. إجابتها إيانا أن أرتنا علاماتها كأنها سطارٌ وكتـب، أي: مَنْطقهـا السطور والآثار؛ وكل ذلك لايجيب» [ص٣٤١].

(٦) في الشرح: «ألبثه انحدارُ»؛ أي: أبطؤه انحدار» [ص٣٤١].

ويشرع القُطامي - بعد ذلك – في وصف رحلته وصاحبيه على المطايا في البيداء؛حيث يطلب منهما أن يسقياه الراحَ لعلّه يسلو شجونه؛ فيسقيه إيّاها ممزوجةً مرقَّقةً فتًى طويلٌ على عَجَلَة:

١٤- وعارضتُ المطيَّةَ وهْي تَهوي وأهونُ سيرة منها انسجارُ[١]
١٥- وقلتُ لصاحبيَّ ألا اصْبَحاني لتُسْلِيَ عَبْرتي راحٌ عُقَارُ[٢]
١٦- فَشَعشَعَ بالإداوة شَرْمحيٌّ وليس بنا وإنْ جَهَدَ انتظارُ[٣]

ثم يصف حال مطاياهم من الإبل: فهي ذوات دَأَب على السير، قد تناثر زَبَدُ مشافرها على الأرض الصُّلبة؛ فلم تتشرَّبه، فبدا كسبائخ القطن المندوفة! وتسمع من بعضها حنينًا وترجيعًا كأصوات الصقور الرابضة على التلال المرتفعة، قد أنحفها كثرة السير، هنا وهناك، في الفيافي، حتى غَدَتْ كالنصال الدقيقة تُرمى بها الأهداف المنصوبة المتفرّقة!!

١٧- ونحن على قلائصَ يَعْمَلات أضَرَّ بها الترحُّلُ والسِّفارُ[٤]
١٨- كأنّ لُغامَهُنَّ سَبيخُ قُطن على المَعْزاءِ تَندِفُهُ الوِتارُ[٥]
١٩- وتسمعُ من أسادسها صريفًا كما صاحَت على الحَدَبِ الصّقارُ[٦]

(١) الانسجار: هو من قولهم: انسجرت الإبلُ في سيرها: تتابعت [ينظر: اللسان (س ج ر)٣ /١٩٤٣].
(٢) في الشرح: «عَبْرته: دَمْعه وحُزنه»، وأن «العُقار» هي الخمر التي تعقر عقول الرجال [ص٣٢٤]. و«اصبحاني»، أي: اسقياني الصَّبُوح؛ وهي هنا الخمر [ينظر: اللسان (ص ب ح) ٤/ ٢٣٨٩].
(٣) في الشرح: «شعشع: أرقّ المِزاج». وفيه: «شرمحي: طويل شابّ»، «يقول: سقانا على عَجَلة، ولو جهد بنا لم ننتظر لأننا مسافرون».
(٤) في الشرح أن «اليعملات» الصابرات على الدأب [في السير]، وأن «السِّفار» جمع(سفر) [ص٣٤٢]. و«قلائص» جمع «قلُوص»؛ والقلوص من الإبل بمنزلة الجارية من النساء- [ينظر: اللسان (ق ل ص) ٣٧٢٢/٥].
(٥) في الشرح أن «اللغام» الزَّبد، وأن «سبيخ القطن»: قِطَعُه، وأن «المعزاء» أرض غليظة، و«الوِتار»: جمع (وَتر) [٢٠]. و«نَدْف» القطن: طرْقه بالمِنْدَف [ينظر: اللسان (ن د ف) ٤٣٨٤/٦].
(٦) في الشرح أن «الصريف»: الصوت، و«الحدَب» ما أشرف من الأرض، و«الصِّقار» جمع صقر [ص ٣٤٢]. و«السَّديس» من الإبل: ما دخل في السنة السادسة [ينظر: اللسان (سدس) ٣/ ١٩٧٣].

٢٠- سَواهِمَ تَغتلي في كـــلِّ فـــرعٍ كما يُرمَى لـــذي الغَـــرض القِتـــارُ[١]

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف مركب من مراكب النساء جاء البشير بخبـره: فقـد سرن على مطاياهنّ في وقت الهاجرة، وقد جفّت الغُدران، فتوجَّهن تلقاء «نجد»، بعـد أن أصابت ريحُ السَّموم الحارّة إبلَهنّ؛ فاشتدّ عطشها، وجعلت تبحث عن الماء. ويُعجـل الشاعرُ وصحبُه ركبهم ليلحقوا بمركب النساء هذا، حتى إذا أدركوه، صـادفوا نـساءه حساناً، وجاذبوهن أطراف الحديث، فلم يبخلن به، بل أمتعوهن بنظرات فاترة كـسيرة، وكشفْنَ عن أعناق طويلة زادتها القلائدُ حُسْنًا وأَلَقًا:

٢١- وبـــشَّرَنا البـــشيرُ بـــنُعم طيـــر ومـمـــــا أنْ تَقَبَّلنـــــا البـــــشارُ[٢]

٢٢- بظُعْن لجَّجَـتْ فـي يـوم صـيف وقالـوا ليـــس بالأَنْهَى قطـــــارُ[٣]

٢٣- دَعتْهنَّ الهواجـــــرُ نحـوَ نَجْـد وصـــابَ الهيـــفُ فابتُـــدرَ الغمـــارُ[٤]

٢٤- فـــشمَّرت الحُـــداةُ بكـــل رَسْـــل عـــلاه الـــرَّيْطُ أشـــعَلَه احمـــرارُ[٥]

٢٥- فلمّـــا أن لَحِقْنـــا بَعـــدَ لَـــأْي بِبـــيض فـــي محاجِرهـــا احْـــوِرارُ[٦]

---

(١) في الشرح أن «سواهم»؛ أي: ضُمَّر، و«تغتلي»: تذهب وتُسرع، و«الفرع»: الأرض الدقيقـة التـراب الواسعة، و«القتار»: جمع «قُتْرة»؛ وهي النصال الصغار الدقاق.

(٢) في الشرح «هذا مقلوب؛ أراد: ومما نتقبل البشار، يريد: نحبّ أن نبشر، ونقبل ذلك»[ص٣٤٣].

(٣) في الشرح أن «لججت»: رحلت في السير، و«الأَنْهى»: جمـع «نِهْـي»، وهـو غـدير المـاء، وأن «القِطار»قطرات المطر «أي ليس هناك ماء»[ص٣٤٣]. و «الظُّعْن»: النساء فـي هـوادجهنّ؛ جمـع «ظعينة»:[ينظر: اللسان (ظ ع ن) ٤/ ٢٧٤٨].

(٤) في الشرح أن «الغمار»ماء كثير [ص٣٤٣]. و«الهَيْف»: ريح حارّة تهُبّ من الجنوب، تصيب الإبـل بالعطش [ينظر: اللسان (هـ ي ف) ٤٧٣٨/٦].

(٥) في الشرح: «رسل»: سريع سهل، «علاه الريط: جُلّل بالملاء الأبيض، أشعل الريط؛ أي عمّ؛ يريـد أن فيه صِبغًا أحمر»[ص٣٤٣]. و«شمّر»الدابة: أَعْجلها في السير [ينظر: اللسان (ش م ر) ٢٣٢٢/٤].

(٦) في الشرح: «المحاجر: ما يبدو من النقاب. احورار: بياض». وصُنع الشيء بعد «لَأْي»، أي: بعد شِـدّة وإبطاء [ينظر: اللسان (ل أ ي) ٥/ ٣٩٧٧].

٢٦ - تنازَعْنا الحديثَ فحدَّثتْنا عطابيلٌ تُقتّلُ مَنْ يَغارُ[١]
٢٧ - وجُدْنَ بفديةٍ قَصَدَتْ إلينا وطَرْفٍ يَعافر فيه انْكسارُ[٢]
٢٨ - وعُجنَ سوالفًا وَقَدَتْ عليها قلائدُها كما تقِدُ الجمارُ[٣]
٢٩ - إذا ما احتلَّ بالبطحاءِ حَيٌّ بَدَت غُررٌ تَرادَفَها البشارُ[٤]

ثم يغادر الشاعر مقدّمته الطللية التقليدية، ويشرعُ في بثّ قلقه من حوادث تعتري قبائل «مَعَدّ» التي تَنْتمي إليها قبيلته «تغلب»: فقد استوطنت تلك الحوادث نَفْسَه، وأقضّتْ مضجَعَه. وكلما انجبر صَدْع بين الإخوة، هاضه المفسدون! ثم يتساءل عن دور «قريش» في لَأْم هذا التصدُّع، وهم أصحاب النُّهى الوافرة، المانعون دون وقوع النقائص، فإن لم تبادر هي بإصلاح ذات البين بين قبائل «مَعْدّ»، فأنَّى يحدث ذلك؟ خاصة وأن الله تعالى قد اصطفاهم على غيرهم؛ بما لهم من بَأس، وجَلَد، وشرفِ أَرومة:

٣٠ - أذاكَ هُديتَ أم ما بالُ ضيفٍ تَضمَّنَهُ المضاجِعُ والشِّعارُ[٥]
٣١ - وأرَّقَني بدائعُ في مَعَدٍّ أَراها اليومَ ليس لها ازْدِجارُ[٦]
٣٢ - إذا ماقلتُ قد جُبِرَتْ صُدوعٌ تُهاضُ وليس للهَيْضِ اجْتبارُ[٧]
٣٣ - كذاك المُفسدونَ إذا تَوالَوْا على شيءٍ فأمرُهُمُ التَّبارُ[٨]

---

(١) في الشرح أن «عطابيل: طوال الأعناق، تقتّل: تعذّب»[ص ٣٤٤].
(٢) في الشرح «(بفدية): قُلْن: فديناك، (يعافر): ظِباء، (انكسار): فُتور» [ص ٣٤٤].
(٣) في الشرح: «(عُجْن): عَطَفْن...، (وقدت): التهبت»[ص ٣٤٤]. و«السالفة: أعلى العنق، والجمع: سوالف»[ينظر: اللسان (س ل ف) ٢٠٦٩/٣].
(٤) في الشرح: «(ترادفها): ركبها وتظاهر عليها، (البشار): الحُسْن؛ امرأة بشيرة» [ص ٣٤٤] . و«الغُرّة»: بياض الوجه، و«غُرّة المتاع»: خياره [ينظر: اللسان (غ ر ر) ٣٢٣٥/٥].
(٥) في الشرح «الشِّعار»: ما وَلِيَ شعر جسد الإنسان من الثياب [ينظر: اللسان (ش ع ر) ٢٢٧٥/٤].
(٦) في الشرح: «(بدائع): ما يُبتَدع من الأمور، زجرته: نهيتُه؛ فازدجر: انتهى» [ص٣٣٤].
(٧) في الشرح: «الهَيْض: الكسر والرجوع في المرض» [ص ٣٤٤].
(٨) في الشرح: «(التبار): الهلاك» [٣٤٥].

٣٤- فأينَ ذَوو البطاح ذُرَى قريش وأحلامٌ لَهمْ ما تُستعارُ[١]
٣٥- ونحن رعيَّةٌ وهمُ رُعاةٌ ولولا رَعيُهُم شَنَعَ الشَّنارُ[٢]
٣٦- فإن لم تأتَمِر صُلْحًا قريشٌ فليس لسائرِ العَرَبِ ائْتمارُ[٣]
٣٧- وفضَّلهمْ بإذنِ اللهِ صَبرٌ وضَرْبٌ للأعادي واحْتِقارُ

ثم يشرع «القطامي» في تعزيز ما سبق بدعوة قومه إلى الوحدة، ونَبْذ الفُرْقة، مُحاجِجًا بالعواقب الوخيمة لها، ومستشهدًا بما آل إليه أمر «كِسرى»، وجُند «فِرعون»، وقوم «نوح»- عليه السلام - مستطردًا إلى ذكر طَرَف من هذه القصّة الأخيرة: وقوع الطوفان، وركوب السفينة، ورسوّها على جبل الجوديّ، وانحسار الماء أخيرًا:

٣٨- فيا قومي هَلُمَّ إلى جميع وفيما قد مَضَى كان اعتبارُ
٣٩- ألم يُخْزِ التفرُّقُ جُنْدَ كِسرى وأَجْلَوْا عن مدائنهم فطاروا
٤٠-وشُقَّ البَحرُ عن أصحاب موسى وغُرِّقَت الفراعنةُ الكفارُ[٤]
٤١- فكَم من مُدَّة سَبَقَتْ لقوم زَماناً ثُمّ يَلحَقُها انبتارُ[٥]
٤٢-فما من جِدَّة إلا ستَبلَى وتَقضَأُ بعد جِدَّتها الحبارُ[٦]

٤٣-فأُنذِرُكم مصائرَ قوم نوح وكانت أُمّةً فيها انتشارُ[٧]
٤٤-وكان يُسبّحُ الرحمنَ شُكرًا وللهِ المحامدُ والوَقارُ[٨]

---

(١) في الشرح: «(ما تستعار)؛ أي: هي معهم أبدًا لا تذهب»[ص ٣٤٥]. و«بطاح»الوادي: مَسِيله المشتمل على دُقاق الحصى [ينظر: اللسان (ب ط ح) ٢٩٩/١].
(٢) في الشرح: «(شنع): انتشر...، و(الشنار): العيب»[ص ٣٤٥].
(٣) في الشرح: «تأمر أَنْفُسَها ومَنْ أطاعها»[ص٣٤٥].
(٤) في الشرح: «الكِفار»: جمع كافر [ص ٣٤٦].
(٥) في الشرح: «كانوا في سلطان ومُدّ لهم في العمر، ثم لحقهم انقطاع» [ص٣٤٦].
(٦) في الشرح: «(تقضأ): تَخلَق» [ص٣٤٦]. و«الحَبَرة»: نوع من بُرود اليمن ذو خطوط [ينظر: اللسان (ح ب ر) ٢/ ٧٤٩].
(٧) في الشرح: «(انتشار): اختلاف؛ أي: تفرُّق» [ص ٣٤٦].
(٨) في الشرح: «(الوقار): العظمة».

٤٥ -فلمّـــــا أَن أرادَ اللهُ أمـــــرًا مـضى والمُـشركونَ لهـم جُـوَارُ[١]
٤٦ -ونـادى صـاحبُ التَّنُّـور نُوحًـا وصُـبَّ علـيهمُ منـهُ الوَبـارُ[٢]
٤٧ -وضَـجُّوا عنـد جيئتـه إلـيهم ولا يُنجـي مـنَ القَـدَرِ الحـذارُ[٣]
٤٨ -وجـاشَ المـاءُ مُنهَمـراً إلـيهم كـأنّ غُثـاءَه خـرَقٌ نثـارُ[٤]
٤٩ -وعامَـت وَهْـي قاصِـدَةٌ بـإذن ولـولا اللهُ جـارَ بهـا الجَـوَارُ[٥]
٥٠ -إلى الجُـوديِّ حتّـى صـار حجـرًا وحان لتالكَ الغُمَـر انْحـسـارُ[٦]

ويُقَفّي «القطامي» على ما سبق من «استشهادات» بذكـر أن في سَوْقها «عظةً» لمن «يعتبر». ثم يغادر ذلك إلى التنويه بفحولته الشعرية، وقصائده التي يتوقّى النـاسُ سهامها، وإلى التنويه بكرم مَحْتِده الذي يجعله في صدارة المشاهد، حين يتوارى غيـر ذوي الشأن من «الموالي» ونحوهم:

٥١ -فهـذا فيـه موعظَـةٌ وحُكـمٌ ولكنـي امْـرُؤٌ فـيَّ افتخـارُ
٥٢ -مـن الفتيـان أقـذفُ كـلَّ عَبْـد بجُـرْب لـيس فـيهنّ اعتـذارُ[٧]
٥٣ -وعنـدَ الحـقّ تَعتـزِلُ المـوالي إذا مـا أُوقِدَتْ للحَـرب نـارُ[٨]

ثم يخاطب «القطامي» قبيلة «كلب» (القُضاعية) داعيًا إياها إلى الوحدة، محاججًا إياها بالأخوة في النَّسَب الأعلى، وأنّ الحق هو انتسابهم إلى «مَعَـدّ»، لا إلـى الـيمن (حِمْير)، وأن جدّهم الأعلى كان سيِّدًا عظيمًا تتاقصر دون منزلته أعناق الآخـرين، وأن

(١) في الشرح: «(جُوَار): صياح».
(٢) في اللسان [(و ب ر) ٤٧٥٢/٦] أن «الوبار» و«التوبير» بمعنى التعفية ومَحْو الأثر.
(٣) في الشرح: «(جيئته): حين جاء الطوفان»[ص٣٤٧].
(٤) في الشرح: «يريد: كأن زَبَده ملاءة مبسوطة منشورة»[ص٣٤٧].
(٥) في الشرح: «(عامت): سبحت إلى الجودي. (الجَوار): الجَوْر؛ أي: لولا الله لجار بالسفينة الجَوْرُ حتى لا تقف على الجودي، أي: لجارت بالسفينة الحَيْرةُ؛ فكانت تجور ولا تهتدي»[ص٣٤٧].
(٦) في الشرح: «(حجرًا): مانعًا، أي: منعها الجودي أن تَبرح...، (الغمر): الشيء الذي يَغمـر ويُغـرق، (انحسار): انكشاف»[ص٣٤٧].
(٧) في الشرح: «(جُرْب): قوافٍ جُرْب؛ كأنها جَرِبة لفظاعتها، ولا أعتذر من ذلك»[ص٣٤٧].
(٨) في الشرح: «الموالي: الذين ليسوا بصريح، يعتزلون، ويثبُت الصريح»[ص٣٤٧].

«النِّزاريين» - بفرعيهم الكبيرين: مُضَر وربيعة- هم أنصار دين الرحمن، فهيهات أن تنال منهم قرونُ أعدائهم وحُسّادهم، وهيهات أن يدانيهم أحدٌ في الحَسَب والمكانة:

٥٤-أكلبُ هَلُمّ نحنُ بنو أبيكُم ودَعْوى الزُّورِ مَنقَصةٌ وعارُ
٥٥-وقد علمَتْ كهولهُمُ القُدامى إذا قَعَدوا كأنَّهُمُ النّسارُ(١)
٥٦-بأنّ قُضاعةَ الأولى مَعَدٌّ لقَرْمٌ لا تَغِطُّ لهُ البكارُ(٢)
٥٧-إذا هَدَرَتْ شَقاشِقُهُ ونَشْبَتْ لهُ الأظفارُ تُرْكَ لهُ المَدارُ(٣)
٥٨-ومَن يَتَوَلَّ للرحمن نَصرًا فنَطْحُ ذوي القُرون لهُ اجْتِبارُ(٤)
٥٩-ومَنْ يَنطَحْ بهِ جَبَلا نِزار يُفَرَّثْ من مدامعهِ انتثارُ(٥)
٦٠-إذا اصطَكَّا بأَرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ تَفارَطَ أن تناوَلَهُ القصارُ(٦)

ويعود «القطامي» إلى استحثاث «كَلْب» على الوحدة مع قبيلته «تغلب»، محاججًا بأن الأخيرة تضم أهل العَدْل والحِكمة، وإذا ما بادرت «كلب» إلى مراعاة آصرة النسب بينهما، فلن تجد من «تغلب» إلا ترحابًا، وسلامًا، وتنكُّبًا للمكر بها:

٦١-هَلُمّ فعندنا عَدْلٌ ونَصْفٌ وأحكامٌ تُسَدُّ بها الثّغارُ(٧)
٦٢-وإن يَعطِفكُمُ نَسَبٌ إلينا فليسَ عليكُمُ مِنّا ظِهارُ(١)

---

(١) في الشرح: «النسر من أعزّ الطير وأقهرها»[ص٣٤٨].

(٢) في الشرح: «(لا يغطّ)» لا تهادره صغارُ الإبل وأفتاؤها، ولكن الفحول الجِلّة، (لا تغطّ): لا تصيح ولا تُوعده» [ص٣٤٨]. و«القَرْم»: البعير المُكرَم الذي لا يُحمَل عليه، ولا يُذَلّل، ولكنه يُفرد للضِّراب؛ ومنه جاء قولهم «القَرْم»: اللسان (ق ر م) ٣٢٧١/٥.

(٣) في الشرح: «حيث يدور؛ يُقبل ويُدبر؛ لا يزاحمه أحد. وأراد (نَشِبت) و(تُرِك) فخفَّف» [ص٣٤٨]. و«الشِّقْشِقة»: جِلْدة في حَلْق البعير، ينفُخ فيها الريح؛ فتنتفخ؛ فيهدِر فيها – والجمع: شقاشِق- ويُشبّه به الرجل الفصيح المنطيق [ينظر: اللسان (ش ق ق) ٢٣٠٣/٥].

(٤) في الشرح: «أي: يجبره الله» [ص٣٤٨].

(٥) في الشرح: «(يُفرَّث): أي: يُقطع ويُكسر ويفرّق. (انتثار): ما انتثر منها» [ص٣٤٨]. و«المدامع»: جمع «مَدمَع»؛ وهو مسيل الدمع، ويقال: شجّة دامعة: إذا كانت تسيل دمًا [ينظر: اللسان (د م ع) ٢/ ١٤٢٢].

(٦) في الشرح: «أي: جاوز أن يتناوله القصارُ؛ لا يُدرك» [ص ٣٤٨]. و«الرَّعْن»: الأنف العظيم المتقدّم من الجبل، والحبل الأرعن: ذو الرَّعن. و«المكفهرّ» من الجبال: الصُّلْب لا يناله حادث [ينظر: اللسان (ر ع ن) ٣/ ١٦٧٦، و(ك ف هـ ر) ٣٩٠٧/٥].

(٧) في الشرح: «الثغار»: جمع ثَغْر (ص٣٤٩).

ثم يشرع القطامي في الفخر بتراث قبيلته، مُحاججًا برجالاتها، وبعتادهم من الخيل والسلاح، مسميًا بعض كبار الأسلاف (إياد – عيلان...)، ومنوِّهًا بأن هذا التراث التالد قد توزَّعتْه (تناهبتْه) القبائلُ المَعَدّية، وأنه كان لـ«تغلب» الحظُّ الأوفر منه:

٦٣-أبونا فارسُ الفُرسان علْقَتْ بكَفَّته الأعنّةُ والغوارُ[٢]
٦٤-وأفضلُ ما اقتنينا من سَوام ذُكُورُ الخيل والأَسَلُ الحرارُ[٣]
٦٥-ورثْنا الخيلَ قد علِمَتْ مَعَدٌّ ومِنْ عاداتهنَّ لنا اختيارُ
٦٦-تراثاً عن أبي صدْق إيادٌ وعَيْلانٌ وخنْدفُها الكُثارُ[٤]
٦٧-أباعرَه فكُلٌّ ساقَ نَهْبًا له منه العَرارةُ والخيارُ[٥]
٦٨-فصارت بالجُدود بنو نزار فَسُدناهم وأَثعلَتِ المِضارُ

٦٩-فكان لنا وللمُضرَيْن حَظٌّ وللحُسّاد في الأثَرِ الغُبارُ[٦]
٧٠-فصار العزّ والبَسَطاتُ فينا وأعلامٌ قَدامسَةٌ كبارُ

ويستمرّ الشاعرُ في تَعداد «حُجَج» الفخر بآبائه الأدنين والأقدمين: فمنهم – وهم بنو مَعَدّ بن عدنان – الأنبياء، والملوك، ولهم عزّ الدنيا، وحُسْن المُنْقَلَب، وإسماعيل - عليه السلام - يشهد لهم بالقُدْمة. وفي كل هذا – وغيره- ما يشهد بسبقهم وعلوّ مكانتهم، شهادةً جِدّ واضحة، لا يضيرها أن يجحدها جاهل:

---

(١) في الشرح: «أي: لا نتظاهر عليكم؛ نتعاون» [ص ٣٤٩].
(٢) «علْقت»؛ أي: علِقَتْ، فخفَّف.
(٣) في الشرح: «رماح عطاش إلى الدم» [ص٣٤٩]. وهذا شرح لقوله: «والأسل الحِرار». وفي اللسان [(س و م) ٣/ ٢١٥٨) أن «السوام» الإبل التي تُرسل لترعى في الفَلَوات دون قيد. وفيه أيضًا [(ح ر ر) ٣/ ٨٢٧] أنه يقال: «رجل حرّان»: عطشان، والجمع: حِرار.
(٤) في الشرح: «[العَرارة): الشرف والنجدة. (نهبًا)؛ أي: صار نهبًا في يده».
(٥) في الشرح: «أي: سُدْنا نحن بني نزار. و(أثعلت): كثُرت مُضَر» [ص٣٥٠]. وفي اللسان [(ج د د) ١/ ٥٦٠] أن «الجَدّ»: العظَمة والسعادة والغِنى، والجمع «جدود». و فيه [(ث ع ل) ١/٤٨٤]: «لثَة ثعلاء: خرج بعضها على بعض؛ فانتشرت وتراكبت»، ثم أورد بيت القطامي هذا، وشرحه بقوله: «معناه: كثُرت فصارت واحدة على واحدة، مثل السّنّ المتراكبة».
(٦) في الشرح: «البَسْطة: الزيادة في كل شيء. (قدامسة): قديمة» [ص٣٥٠].

٧١-ومنّـــا الأنبيـــاءُ وكُـــلُّ مَلْـــك وأحكـــامُ الأئمـــةِ حيـــثُ صـــاروا
٧٢-غَلَبنا النـــاسَ فـــي الـــدنيا بفـــضل ونرجـــو أن يكـــونَ لنـــا المحـــارُ[١]
٧٣-وإســـماعيلُ بعـــد اللهِ يَقـــضي لنـــا بـــالحقِّ إذ رُفِـــعَ الخطـــارُ[٢]
٧٤-فعنـــدي الفَـــصْلُ للجُهّـــالِ مـــنكُمْ كمنهاج الطريـــقِ بـــه المَنـــارُ[٣]

ثم ينتقل «القطامي» إلى التثريب على قبيلة «قضاعة»؛ لادّعائها الانتساب إلى اليمن(حِمْير)، لا إلى «مَعَدّ» التي تنتسب إليها «تغلب» قبيلة الشاعر. قال المصعب الزبيرّي (ت٢٣٦هـ): «فولد مَعَدّ بن عدنان نزارًا، وقُضاعة... وقد انتسبتْ قضاعة إلى حِمْير، فقالوا: قضاعة بن مالك بن حِمْير»[٤].

فـ«قضاعة» إن تخلّت عن أصلها الـ«معدّي» صارت من الأتباع، لا من السادة، وعالجت الظلم، والهزيمة، والخذلان. وهذا جزاء من ينتسب لغير أصله؛ فالزيتون لا يصير نخلًا، وتَمْرُ مدينة «هَجَر» لا تُنبته أرضُ مدينة «حمص»؛ فلكلٍّ كينونته، ومنبته، وأصله:

٧٥-قُـضاعةُ كـان حزبًـا مـن مَعَـدّ فحَطَّهُـمُ المعاتـبُ والـضِّرارُ[٥]
٧٦-فـإنْ تُعـزَلْ قُـضاعة مـن مَعَـدّ تَـصرْ تَبَعًـا وللتّبـع الـصَّغارُ
٧٧-ويَلقـوْا ثَـرَّ شُـخْب مـن مَعَـدٍّ يَـدرُّ لمَـن يُـشاركُه الغِـرارُ[٦]
٧٨-وتَعْرِفْ مِـنْ بنـي قحطـانَ بُعـدًا وتُظلَـمْ وَهْـيَ لـيس لهـا انتـصارُ

(١) في الشرح: [ص٣٥٠]: «(المحار): أن يكون لنا خير المُنْقَلَب».
(٢) في اللسان [(خ ط ر) ١١٩٦/٢] أن «الخَطَر» هو السَّبَق الذي يُترامى عليه في التراهن.
(٣) في الشرح: «المنهاج: الطريق البيِّن» [ص٣٥٠].
(٤) المصعب الزبيري: كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية. ص٥.
(٥) في الشرح: «(حزبًا): طائفة وفرقة. (فحطهم المعاتب)؛ يقول: عتبوا على مَعَدّ فانتقلوا عنهم فحط ذلك من شرفهم»[ص ٣٥٠].
(٦) في اللسان [(ث ر ر) ٤٧٧/١]: «عين ثرَّة: غزيرة الماء...، وشاة ثَرَّة: واسعة الإحليل، غزيرة اللبن إذا حُلبت، وقد ثرّت ثَرًّا، وإحليل ثَرٌّ: واسع». وفيه [(ش خ ب) ٢٢١٠/٤] أن «الشُّخْب» هو اللبن الذي يخرج من الضَّرْع إذا احتُلِب. وفي الشرح [ص٣٥١] أن «الغِرار» قِلّة اللبن.

٧٩-ومَـن يـكُ يـومَ دعوتـه غريبًـا يَخُنْـهُ مـن جَناحَيـه انكسارُ
٨٠-ونصرُ ذوي الأباعـد منـكَ رَيـثٌ وأحـشاءُ ابـن عمّـكَ تُسْتطارُ(١)
٨١-ومـن يَنـزِعْ أَرُومَتَه لأُخـرى فذاك لثابتِ الأصـلِ اعْتِقـارُ(٢)

٨٢-كمـا الزيتـونُ لا يَمّـازُ نَخْلًـا ولا الجَبّـارُ تُبْـدَ لَـهُ صُـحارُ(٣)
٨٣-ولا التمرُ المُكمَّـمُ حـولَ حمـص إذا ما حـانَ مـن هَجَـرَ الجِـزارُ(٤)

ويستمر«القطامي» في تثريبه على «قضاعة»: مُحاججًا بأنه يـأنف أن يكـون إخوته في النَّسَب الأعلى تابعين لليمن (حِمْير)، لا لـ«نزار بن مَعَدّ»، ذلك الجدّ الأقـدم الذي تحدّر من صُلبه الأسلافُ الكرام، الذين إذا ألمَّتْ بالناس الـشدائد، دَعَـوْهم إلـى موائدهم جماعات، في حين لا يدعو غيرُهم إلا نَفَرًا فُرادى:

٨٤-وآنَـفُ أن يكـونَ أخـي تَبيعًـا لِـذي يَمَـن وقـد قَهـرتْ نِـزارُ
٨٥-ويأبى الصِّيدُ مـن سَـلَفَيْ نـزار وأرفـادٌ محالبُهـا غِـزارُ(٥)

---

(١) في اللسان [(ط ي ر) ٢٧٣٧/٤] أن «الاستطارة»: التفرُّق؛ استطار الغبار: انتشر في الهواء، وكـذلك: البرق، والشَّيْب، والشَّرّ. وفي الشرح [ص ٨٠]: «تُرعد من الغضب»؛ أي: أحشاؤه.

(٢) في اللسان (أ ر م) أن «الأرومة»- بفتح الهمزة وضمها – هي الأصـل. وفـي الـشرح [ص٣٥١]: «اعتقار: مَذَلَّة».

(٣) في الشرح [ص٣٥١]: «صحار: أرض عُمان؛ وهي كثيرة النخل. (لا يمّاز): لا يتميز؛ فيفارق شـجر الزيتون ». وفي اللسان [(ج ب ر) ٥٣٥/١]: «نخلة جَبّارة: فَتِيَّة قد بلغتْ غاية الطول وحملتْ، والجمع: جبّار».

(٤) في اللسان [(ك م م) ٣٩٣٢/٥] تكميم عذوق التمر، هو تغطيتها عند إرطابها، ليبقى ثمرها غـضًّا، ولا يُفسده الحرُّ. وفيه [(ج ز ر) ٦١٤/١] أن «الجِزار» هو صِرام النخل. وفيه [(هـ ج ر) ٤٦٢٠/٦] أن «هجر» اسم مدينة يُصرف ولا يصرف؛ وهي مشهورة بتمرها، ويضرب بها المثل في ذلـك فيقـال: كجالبِ التمر إلى هجر. وفي الشرح [ص٣٥٢]: «يقول: ليس هجر إذا أتى جِزاره، وأدرك ثمره، يكون بحمص أبدًا».

(٥) في اللسان ([ص ي د) ٤/ ٢٥٣٤] أن «الأصيد» الذي يرفع رأسَه كِبْرًا، وأن من ذلك قولهم «أَصْيَد» للملك؛ لأنه لا يلتفت في سيره يمينًا ولا شمالًا. وفي الشرح (٣٥٢): «رِفْد: قَدَح عظيم».

٨٦-إذا الـــرِّيحُ الـــشّآميَـــةُ اســـتحنّتْ وَلَعْبَ بها مـــــع الليـــــل العـصـــارُ[١]

٨٧-فأُدْبَتُنـــا الجوافـــلُ كـــلَّ يـــوم وبعـــضُ النـــاس أُدْبَتُـــه انْتقـــارُ[٢]
٨٨-وقولُ المرءِ يَنفُـذُ بَعْـدَ حِـين أماكـــنَ لا تُجاوِزهـــا الإبـــارُ[٣]

وينتقل القطامي من التثريب على «قضاعة»، انتقالةً جِدّ قصيرة، إلى مدح «عبد الملك بن مروان» مُحاججًا بأنه مصدر الهُدَى والنور، وهو سيد بني أمية، القرشي المحسَّب، وهو مأدبة الفقراء، وحصن اللائذين؛ ولذا فقد قَرّ قَرار الخلافة عنده:

٨٩-أميـــرُ المـــؤمنين هُـــدًى ونـــورٌ كمـــا جَلّـــى دُجَـــى الظُّلَـــمِ النهـــارُ
٩٠-قريـــعُ بنـــي أُميّـــةَ مـــنْ قُـــريش هـــمُ الـــسّرُّ المهـــذَّبُ والنُّـــضارُ[٤]
٩١-فعَبْـــدُ المَلْـــكِ للفقـــراء طَعـــمٌ وحـــرْزٌ لـــيس مَعْقلُـــه يُـــضارُ[٥]
٩٢-وقـــد حَمَـــلَ الخلافَـــةَ ثُمّ حَـــلَّ بهـــا عنـــدَ ابنِ مَـــرْوانَ القَـــرارُ[٦]

ثم يعود «القُطامي» إلى مسألة الانتماء القبلي الأعلى لـــ«قُـضاعة»، فيسائل بعضَ رؤوس القبائل الحِمْيرية اليمنية (ذي الكَلاع- ذي رُعين): هل من الحق في شيء الزعم بأن «قضاعة» قبيلة يمنية؟ ألا يشهد بكذب هذا الزعم «أنمار بن نزار بن مَعَدّ» أخو قضاعة؟

---

(١) في الشرح[ص٣٥٢]: «(استحنت):هبَّتْ؛ فحنّت حنينًا. والإعصار: الغبار».

(٢) في اللسان [(أدب) ٤٣/١]: «الأُدْبة والمَأدُبة: كل طعام صُنع لدعوة أو عُرْس. والأَدْب: مصدر قولك: أَدَب القوم أَدْبًا: إذا دعاهم إلى طعامه». وفيه أيضًا [(ج ف ل) ٦٤٣/١، و(ن ق ر) ٦/ ٤٥٢٠] أن العرب تقول: «دعاهم الجَفَلى»: إذا دعا عموم الناس إلى طعامه، وتقول: «دعاهم النَّقَرى»: إذا دعا بعضًا دون بعض.

(٣) في الشرح [ص٣٥٢]: «(الإبار): جمع إبرة».

(٤) في اللسان [(ق ر ع) ٣٥٩٧/٥]: «القريع: السيِّد؛ فلان قريع دهره، وفلان قريع الكتيبة: رئيسها».

(٥) «طَعْم»، أي: طعام [ينظر: اللسان (ط ع م) ٢٦٧٤/٤].

(٦) «حلّ» هذه الكلمة على وضعها تُحدث كسرًا في العروض وقد وجدناها هكذا في كلّ من تحقيقَي (السامرائي/ مطلوب) و(الربيعي).

٩٣-وقلتُ لذي الكَلاع وذي رُعَين أَحَقٌّ قولُ حمْيرَ أم جَوَارُ[١]
٩٤-تَدَعِّيهم قُضاعَةَ بَعدَ دَهر وفي الدَّهر التَّقَلُّبُ والغِيارُ
٩٥-وأنمارُ بنُ بَجْلَةَ قال قِيلًا وليس له إذا عَدُّوا غِدارُ

ويختتم الشاعر قصيدته بالفخر بقبيلته تارة أخرى مُحاجِجًا بأنهم فرسان الوغى، والخبراء بفنون القتال، تَلمع سيوفُهم في ساحاته، ضاربين بها هاماتِ الشِّرار من أعدائهم، مقتفين سَنَنَ الحقّ؛ لا يحيدون عنه:

٩٦-متى تُرْعِشْ إلى الإلجامِ يومًا يُقم سُوقَ الطِّعانِ لها تجارُ[٢]
٩٧-ومَعقلُنا السيوفُ إذا أَنَخْنا وقد طارَ القنازعُ والشّرارُ[٣]
٩٨-بضَرب تُبصرُ العُميانُ منْهُ وتَعْشَى دونَه الحَدَقُ البصارُ[٤]
٩٩-وإسحاقٌ أخونا قد علمتُمْ عَلَيْنا منْ مواسمِه النّجارُ[٥]
١٠٠-نَهُزُّ المَشْرَفيّةَ ثم نُعدي وليس بنا عن الحَقّ ازْوِرارُ[٦]

- ويمكننا – بعد- رَصْد المحاور الحجاجية الأساسية التي اشتملت عليها هذه القصيدة في الآتي:

١- خلوّ ديار الأحبّة منهم:

وقد «برهن» الشاعرُ على ذلك بإحدى الحجج المؤسسة على بنية الواقع، وهي «الحجة السببية». وهي «حُجّة» ذات ثلاثة أضرب:

- حجة تهدف إلى الربط بين حدثين متتابعين برابط سببي (اجتهد فنجح).

(١) في الشرح أن «الجَوار» هو الجَوْر؛ أي: الظلم.
(٢) في اللسان [(ر ع ش) ١٦٧١/٣]: «يقال: إنه لرَعِشٌ إلى القتال، وإلى المعروف، أي: سريع إليه». والتِّجار: جمع تاجر.
(٣) في اللسان [(ق ن ز ع) ٣٧٥٠/٥] أن «القنازع»: صِغار الناس (أي غير ذوي الشأن منهم).
(٤) في الشرح [ص٣٥٣]: «أي لبريق السلاح».
(٥) في الشرح [ص٣٥٤]: «يقال: هو على نجاره، أي: على قدّه وخليقته».
(٦) في اللسان [(ش ر ف) ٢٢٤٤/٤]: أن «المشارف»قُرَى باليمن، تنسب إليها السيوف المشرفية. وفيه [(ز و ر) ١٨٨٧/٣]: أن «الازورار عن الشيء»هو العدول عنه. وفي الشرح [ص٣٥٤]: «أي: نُعدي الخيلَ في الطلب».

- حجة تهدف إلى استخلاص السبب المفضي إلى وقوع حدث ما (نجح لأنه اجتهد).
- حجة تهدف إلى التنبؤ بالنتائج التي سيتمخّض عنها حصولُ حَدَثٍ ما (هو يجتهد فسينجح).

فالربط السببي، إذن، ذو اتجاهين: من السبب إلى النتيجة ، ومن النتيجة إلى السبب(١).

فقد خلت ديار الأحبة من أصحابها؛ فتسبَّب عن ذلك:

- استيطان قطعان الظباء، والأبقار، والنعام، لها.
- ذَرْعها تلك الديارَ جيئةً وذَهوبًا آمنةً مطمئنة!!

وقد كانت الحجة السببية هنا حُجَّة بصرية مُعايَنَة [٢- ٥].

٢- بيان الضرر الذي لحق بالإبل جرّاء الارتحال عليها في الصحراء:

وقد «برهن» الشاعر على ذلك بحجج سببية كذلك: الزَّبد الذي تناثر من مشافرها على الأرض، والنحول الذي أصاب أبدانها. والصريف المنبئ عن حُلول التعب بها [١٧- ٢٠].

والحجتان الأوليان بصريتان، والثالثة سمعية.

٣- التنويه بعلوّ منزلة «قريش»، وذلك في مقام حثّها على التدخل لجمع شمل القبيلة:

وقد «حاجج» الشاعر عن ذلك محاججة (سببيّة) تتمثل فيما يتصف به أبناء هذه القبيلة من رجاحة في العقل، وحُسْن رعاية سادتهم لرعيتهم، وشدّة بأسهم، وتفضيل الله لهم على سائر العرب [٣٤- ٣٧].

وقد جمعت الحجج السببية هنا بين صفات دنيوية خُلُقية، وأخرى تاريخية دينية، كما هو واضح.

٤- دعوة قبيلته إلى التوحد ونَبْذ الفرقة:

وقد «حاجج» الشاعر عن أهمية هذا التوحّد بشواهد –أو حجج (سببية)- تاريخية، شملت:

- ما حدث لجند «كسرى».
- ما حدث لجند «فرعون».

(١) انظر فيما سبق: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج ص٤٩- ٥٠.

- ما حدث لقوم «نوح »- عليه السلام - مستطردًا في ذكر تفاصيل هذه «الحجة» الأخيرة، على ما سبق بيانه [٣٨-٥٠].

٥- دعوة قبيلة «كَلْب» القضاعية إلى الوحدة مع قبيلة الشاعر (تغلب)،وأهمية ذلك لقبيلة «كَلْب».

وقد ساق في ذلك حججًا (سببية) تتعلّق بصلة القرابة بينهما، وباشتراكهما في الجدّ الأكبر [٥٤- ٦٠].

فالحجج السببية هاهنا نَسَبيّة تاريخية.

٦- الفخر بقبيلته «تغلب»:

وقد ساق برهنةً على موجبات هذا الفخر حججًا تتعلق بأخلاقهم، وعِظَم مكانة أسلافهم الدنيوية والدينية. وكان ذلك الفخر في سياق حثه قبيلته «كلب» على الوحدة معهم [٦١- ٧٤].

وقد عاد إلى هذا الفخر مرة ثانية في آخر القصيدة محاججًا بفروسية أبناء قبيلته، وقدرتهم الفَذّة على الطِّعان، وبتحريهم الحقَّ والعَدْل، لايحيدون عنهما [٩٦- ١٠٠).

٧- تحذير قبيلة «قضاعة» من التخلّي عن انتمائها إلى قبائل «نزار بن معَدّ»:

وقد حاجج عن ذلك بحجج (سببية) تبين العواقب الوخيمة لذلك، مثل:

- صيرورتهم تابعين لا متبوعين.
- تعرُّضهم لصنوف القهر والصَّغار [٧٥- ٨٤، ٩٣- ٩٥].

٨- مدح «عبد الملك بن مروان»:

وقد حاجج عن ذلك بحجج (سببية) تتصل بالنَّسب والتاريخ (كونه قرشيًّا)، وبأخلاقه (كونه يُطعم الفقراء، ويجير العائذين).

وعلى ما سبق، يتضح أنه كان للحجة السببية القِدْح المُعَلّى بين سائر ضروب الحجج في هذه القصيدة. وهي تشيع في الشعر العربي القديم بوجه عامّ؛ حيث«اعتمده الشعراء في تبرير الأحداث، وتدعيم المواقف»[(١)].

وقد تضمنّت القصيدة حججًا أخرى (موضوعية)، في أثناء محاورها الحجاجية الأساسية، من مثل حجة «السُّلْطة»، وهي من الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع،

(١) د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي ص٢١٥.

وتنهض على ما يتحلّى به المتكلم من هيبة، أو سطوة، أو نفوذ، وتأثير ذلك على الطاقة الحجاجية لكلامه(١).

ومن هذا «احتجاج» القطامي في صحة مسألة انتساب قبيلة «قضاعة» إلى اليمن، لا إلى «نزار بن مَعَدّ»، بسؤال بعض رؤساء القبائل اليمنية [٩٣- ٩٥]:

٩٣-وقلتُ لذي الكَلاعِ وذي رُعَين أَحَقٌّ قولُ حِمْيَرَ أم جَوَارُ

٩٤-تَدَعِّيهم قُضاعَةَ بَعدَ دَهرٍ وفي الدَّهر التَّقَلُّبُ والغِيارُ

٩٥-وأنمارُ بنُ بَجْلَةَ قالَ قيلًا وليس له إذا عَدُّوا غدارُ

٣- الحجاج اللغوي

ويوظّفُ (القُطاميُّ) الحجاج اللُّغويَّ (أو الحجاج باللُّغة) آلية للتأثير والإقناع في أبرز المواقف الحجاجية (في رائيته) مستعينًا بالأدوات والروابط التداولية- بوصفها مؤشرات حجاجية – ليحيل كل معنًى من معانيه إلى المقولات أو الأساليب التي تُعبِّر عن موقفه حين يدعو «قريشًا» إلى المبادرة برأب الصَّدع بين قبائل «مَعَدّ»، قائلاً:

٣٠- أذاكَ هُديتَ أم مالُ ضيفٍ تَضمَّنَهُ المضاجِعُ والشِّعارُ

٣١- وأرَّقَني بدائعُ في مَعَدٍّ أَراها اليومَ ليس لها ازْدِجارُ

٣٢- إذا ماقلتُ قد جُبِرَتْ صُدوعٌ تُهاضُ وليس للهَيْض اجْتِبارُ

٣٣- كذاك المُفسِدونَ إذا تَوالَوْا على شيءٍ فأمرُهُمُ التَّبارُ

حيث ينثر أدواته ضمن مقولاته للربط بين المعاني، مثل (همزة الاستفهام)، وهي من حروف المعاني التي يُسْأَلُ بها عن التصوُّر (المفرد)، وكأنه ليس معلومًا، فيستفسر من خلالها عن المتعيَّن من خلال الطرفين، وجاءت (أم) المتصلة بين المسئول عنه والمعادل (أذاكَ... أم ما بالُ ضيفٍ) ويستعين بعد ذلك بالأفعال الكلامية وعلاقتها بالأدوات في البيت الثاني، ثم يقيم المعادلة (الشرطيّة) الحجاجية (الاستدلالية) (إذا ما قُلتُ... تهاضُ) ليحكم بمقتضاها على طبيعة الموقف الذي يتحسَّرُ فيه على ما أصاب أواشج القربى بين «قيس» و«تغلب» من ضياع وتقطُّع لأواصر القربى بجريهم وراء

(١) انظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج ص٥٢، ود. سامية الدريدي: المصدر السابق ص٢٢٨.

المفسدين، ويقيم (بالكاف) «كذاك» دليلًا دامغًا ضمن الحجج السردية التي تستعين بالوقائع والتفاصيل وتبني الفكرة على الفكرة ضمن السياق التخاطبيّ، وبما يوجّه دفة الخطاب نحو الهدف المنشود. وهذه الوسائل اللفظية والمعنوية (التأثيرية) تخلق نوعًا من الارتباط في الموقف الحجاجيّ الذي يرمي الشاعرُ من خلاله إلى حمل المخاطب على الإذعان لدعوته. وهذا ما قصد إليه (برلمان) في نظرته إلى الحجاج الذي يتشكل في مساحة اللغة، فهو «الوسائل اللفظية التي يشكّلها الكلامُ للتأثير في المخاطبين سعيًا إلى حملهم على الإذعان لدعوى ما»(١).

ويعزّزُ (القطاميُّ) حجته باللُّغة مستعينًا «بالتناصّ» الذي يؤدي دورًا مهمًّا في تشكيل حيّز النصّ، ولا يتوقّفُ عند تفسير وجهة نظر المبدع بقدر مايمثّل تفاعلًا أو صيغة تواصلية بين ذاكرة المبدع، وذاكرة النصّ، وذاكرة المتلقي؛ حيث يُشيرُ في مادته (نَصَصَ) ومدلوله الاشتقاقيّ(٢)، إلى ما يرتبط بالنصّ من معانٍ أو إيحاءات، وكل ما يتعلَّق به من حركةٍ وحيويةٍ وحوارٍ، وتعالُق مع غيره من النصوص، بحيث ينشأ عن هذا التعالق نصٌّ جديد(٣) يستوعب الحجج الثقافية والقصص التاريخية التي تنسجم مع السياق، ويحدث من خلالها نوعًا من التفاعل بين سياقات النصوص (الغائبة/ الحاضرة) في ذهن المُتَلقّي، حيث يقول:

٣٨- فيا قومي هَلُمَّ إلى جميع وفيما قد مَضَى كان اعتبارُ
٣٩- ألم يُخْزِ التفرُّقُ جُنْدَ كسرى وأَجْلَوْا عن مدائنهم فطاروا
٤٠-وشُقَّ البَحرُ عن أصحاب موسى وغُرِّقَتِ الفراعنةُ الكفارُ
٤١- فكَم من مُدَّة سَبَقَتْ لقوم زَماناً ثُمّ يَلحَقُها انبتارُ
٤٢-فما من جدَّة إلا ستَبلَى وتَقضأُ بعد جدَّتها الحبارُ
٤٣-فأُنذِرُكم مصائرَ قومِ نوحٍ وكانت أُمّةً فيها انتشارُ

(١) محمد مشبال: التحليل البلاغي الحجاجي للخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلَّد (١/٢٥)، العدد (٩٧)، ٢٠١٦، ص٨٢، ٨٤.

(٢) راجع: مادة (نصّ) في كتاب «العين» للخيل بن أحمد، و«نَصَصَ» في (معجم مقاييس اللغة) لابن فارس، و(لسان العرب)، لابن منظور.

(٣) هانز روبريثت: تداخُل النصوص، ترجمة: الطاهر الشيخاوي، ورجاء بن سلامة، مجلة الحياة الثقافية، تونس، (٥٠/ ١٩٨٥م)، ص٥٣.

٤٤ -وكـــان يُـــسبّحُ الـــرحمنَ شُـــكرًا ولله المحامـــــــدُ والوَقـــــــارُ
٤٥ -فلمّـــــــا أَن أرادَ اللهُ أمـــــــرًا مـــضى والمُـــشركونَ لهـــم جُـــؤَارُ
٤٦ -ونـــادى صـــاحِبُ التَّنُّـــورِ نُوحًـــا وصُـــبَّ علـــيهِمُ منـــهُ الوَبـــارُ
٤٧ -وضَـــجُّوا عنـــد جيئتـــه إلـــيهم ولا يُنجـــي مـــنَ القَـــدَرِ الحـــذارُ
٤٨ -وجـــاشَ المـــاءُ مُنهَمِـــراً إلـــيهم كـــأنّ غُثـــاءَه خِـــرَقٌ نثـــارُ
٤٩ -وعامَـــت وَهْـــي قاصِـــدَةٌ بـــإذن ولـــولا اللهُ جـــارَ بهـــا الجَـــوَارُ
٥٠ -إلى الجُوديِّ حتّـــى صـــار حجـــرًا وحـــان لتالـــكَ الغُمَـــر انْحِـــسارُ

فهو يوظّف القصصَ الديني والتاريخي – بصوره ومعانيه- رافدًا حجاجيًّا، يستلهم منه المعاني والعِبَر، ومرجعية ثقافية إقناعية بما تحمله من دلالات يستدعيها ويدمجها ويوظفها في النصّ الحاضر كي تكون قادرة على التعبير عمّا يستتبع الفرقة وتشتُّت الشَّمْل من سوء العاقبة، وبهذا تصبحُ بنية الأسلوب العامة متولّدةً عن تفاعُل عددٍ من الأساليب والخطابات التي تتداخل مع النص الأصلي في حوارٍ ممتدّ، مانحةً إياه معطياته التاريخية والاجتماعية[١]، وكل نصٍّ ليس إلا نسيجًا من استشهادات سابقة[٢] تتصل بكثيرٍ من الأحداث الواقعية في أزمنةٍ وأمكنةٍ بعينها بوصفها معطياتٍ حجاجية تُسْهِمُ في تشكيل وعي السامع والتأثير فيه.

(١) حميد لحمداني: التناصّ وإنتاجيَّة المعنى، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ٢٠٠١م، ص٦٥- ٦٦. وراجع: جوليا كرستيفا: علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م، ص٢١.

(٢) رولان بارت: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٧م، ص٦٢- ٦٣.

ويقول في حجاجية لغوية أخرى:

٥٤-أكلبُ هَلُمّ نحنُ بنو أبيكُم ودَعْوى الزُّور مَنقَصةٌ وعارُ
٥٥-وقد علِمَتْ كهولهُمُ القُدامى إذا قَعَدوا كأنَّهُمُ النّسار
٥٦-بأنّ قُضاعةَ الأولى مَعَدٌّ لقَرْم لا تَغِطُّ له البكارُ
٥٧-إذا هَدَرتْ شَقَاشِقُهُ ونَشْبَتْ له الأظفارُ تُرْكَ له المَدارُ
٥٨-ومَن يَتَوَلَّ للرحمن نَصرًا فنَطْحُ ذوي القُرون له اجْتِبارُ
٥٩-ومَنْ يَنطَحْ به جَبَلا نزار يُفَرَّثْ من مدامعه انتثارُ
٦٠-إذا اصطكَّا بأَرْعنَ مُكْفهِرّ تَفارَطَ أن تناوَلَه القِصارُ

وهو يُخضع الخطاب الإقناعي لقواعد اللغة حتى يتمكَّن من تقديم الحُجَج مستعينًا بالوسائل اللسانية والمقومات السياقية التي يتجلَّى فيها البُعد التداولي للخطاب الحجاجي، وينطلق من مفردات اللغة، وتراكيبها، ودلالات ما يعضِّد حجّته، وغايته في التأثير على المتلقّي، ويرتّب كلماته على إيقاع «الوافر» الذي استوعبت مقاطعُه عاطفة الحنين حين يلتمس أواصر القربى والنَّسب والدين، فيبدأ (بالهمزة) أ«كلْبُ» وهي صوتٌ نبريٌّ لا مدَّ فيه، لتنبيه القريب المُصْغِي، وحملهم على الالتفات إلى كلامه في معرض الفخر والاستعلاء بقوله: (هلُمَّ) (بها) التنبيه، وفعل الأمر، بمعنى أَقْبِلُوا، والفاعل المستتر (أنتم/ ونحن) الضمير الدال على ما بعده: (بنو أبيكُم، ويعضد الحجة بالاستدلال بمقولته: (ودعوى الزُّورِ مَنْقصةٌ وعارُ)، ويستخدم (قد) التحقيقية وفعلها الكلامي للتوكيد على مكانتهم حجاجيًّا، و(أنَّ) قضاعة الأولى هي – الأصل- التي لا يزاحمها أحد، ويعضِّد حجته الاستدلالية بالمعادلة الشرطية: (إذا هَدَرتْ... تُرِك له المدار)، و(إذا اصطكا بأرعن... تَفارَطَ أن تناوله القِصارُ) وبينهما جملتان شرطيتان أداتهما «مَنْ» ليبني الدليل على الدليل من خلال الشرط الصريح وما فيه من تشويقٍ وترغيب.

٤ - حجاجية التمثيل والأسلوب الإنشائي

٤ - أ- حجاجية التمثيل:

تمثل حجة التمثيل (أو التخييل)- بما فيها من تشبيه، أو استعارة، أو كناية- إحدى الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع، كما مرّ ذكره.

وتُعَدّ هذه الحجّة (الفنية) الحجة الأكثر شيوعًا في الإبداع الشعري، والأكثر التصاقًا بطبيعته؛«باعتباره [أي الإبداع الشعري] قائمًا على التخيل؛ إذ الاستدلال بواسطة التمثيل يعني تشكيل بنية واقعية، تَسمح بإيجاد – أو إثبات – حقيقة، عن طريق تشابه في العلاقات؛ فهو احتجاج لأمر معيَّن عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر»(١).

ومما يتميز به الدرسُ الحجاجيُّ المعاصر في نظرته إلى وسائل التخييل – من تشبيه أو استعارة...- هو نظرته إليها على أنها وسائل حجاجية يستعين بها أهلُ اللغة في جانب معتبر من مساحات تواصلهم على المستوى العادي أو الإبداعي – لإقناع مُخاطَبيهم بأمر ما. يقول «برلمان»: «إن أي تصور للاستعارة لا يُلقي الضوء على أهميتها في الحجاج لا يمكن أن يَحظى بقَبولنا»(٢).

وقد ميَّز الدرسُ الحجاجي هذا الضرب من الاستعارات باسم «الاستعارات الحجاجية»، في مقابل «الاستعارات البديعية/ الجمالية» التي تُوظَّف – أي تلك الأخيرة – في سياقات «التفنن الأسلوبي»، أو «الزخرفة اللفظية»، دون أن يكون لها دور يُذكَر في إنجاز (عملية) التواصل بين أهل اللغة(٣).

وكذا الشأن في «التشبيه»؛ فإن إنشاء «تشبيه» لشيء بآخر، تكمن وراءه – في أحيان كثيرة- رغبة في إنجاز «برهنة» على أمر ما، لا مجرَّد إظهار البراعة الفنية في الجمع بينهما(٤).

---

(١) د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي ص٢٥٢.

(٢) فريدة بن عاشور: حجاجية الاستعارة في شعر النقائض جرير والفرزدق أنموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسطنطينة، الجزائر، العدد (٤٦)، ديسمبر، ٢٠١٦م.

(٣) انظر: د. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج ص١٠٨- ١٠٩.

(٤) انظر: كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام عليّ -ع- عالم الكتب، الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٢م، ص٢٦.

فإذا انتقلنا إلى قصيدة «القطامي»، فسنجد أنها تشتمل على عدد من التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، التي وظَّفها الشاعر توظيفاً حجاجيًّا للبرهنة على وجاهة ما يعرضه، أو يذهب إليه، من آراء، أو مواقف.

حجاجيَّة التمثيل: (البيان والمجاز):

تتلخَّص حجاجية «التمثيل» في التشابه القائم بين العلاقات التي قد تظهر حيناً وتختفي أو تتماهى حيناً آخر؛ ولعبد القاهر الفضل في الكشف عن فعلية التمثيل، وتأثيره في نفس المتلقِّي إقناعًا وإمتاعًا، وقد اشترط في التمثيل أنْ ينقلك من خَفيٍّ إلى جَليٍّ، ومن تجريد إلى تجسيد، حتى تأنس به النفوسُ من خلال إقامة الحجَّة في أعقاب المعاني القريبة[1]، أو التي هي مظِنَّةُ شكٍّ من قِبَل المتلقِّي.

وتُعدُّ (الاستعارة) من العُمُد الأساسية التي يقوم عليها النَّظْم أو الصياغة، وهي من صفة اللفظ في الظاهر التي يتوسَّلُ بها إلى المعنى، «لأنك تعرف المعنى فيها عن طريق المعقول دون طريق اللفظ»[2]، وكذلك يكون مجال التشبيه عقد صلة بين أمرين، وإدراكُ هذه الصلة يكون من شأن العقل. كما تعودُ الكنايةُ إلى المعنى لا إلى اللفظ، لأن حقيقتها أن تُثبت معنًى تصلُ إليه عن طريق العقل دون طريق اللفظ، والمزيّةُ فيها ليست في إثباتِ المعنى، وإنما في تقريره؛ فالأسلوبُ فيها بمثابة (الدعوى) المشفوعة بالشاهد.

أما (التمثيل) وغيره من ضروب المجاز، فإن الأغراض فيها لا تُعْرفُ من الألفاظ ولكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على الأغراض والمقاصد[3]، ويرجع جمال التمثيل إلى قدرته التصويرية على إدراك الحقائق وتقديم المعنى أمام الأعيُن وفي الأذهان؛ لأن الوصف فيه يحتاج إلى إقامة الحجّة على صحة

(١) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة المدني، ط١، ١٩٩١، ص٩٢، ٩٣.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة المدني، ١٩٩٢م، ط٣، ١٩٩٢م، ص٤٣١.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٤٤١.

وجوده في نفسه، ووضع قياسٍ من غيره يكشف عن حدِّه ومبلغه من الزيادة والنقصان[١]؛ وذلك حين يُحْوِجُ متذوّقَهُ إلى طلبه بالفكرة وإعمال الذهن.

وتتأتى قوة التشبيه والاستعارة من قدرتهما على التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين في محاولة جاهدةٍ لطمس ما بينهما من فروق خلافًا للمقارنة كطريقة في الاستدلال[٢].

ويمكننا أن نتوقف عند اللون الحجاجي الأول، وهو حجاج التمثيل، حيث يلجأ «القُطامي» إلى هذه التقنية (من خلال الصور الذهنية والأبنية العميقة) ويتخذ منها وسيلة للإفهام والإقناع. ويعود الفضل إلى عبد القاهر الجرجاني في الكشف عن فاعلية التمثيل، وتأثيره في نفس المتلقّي إقناعًا وإمتاعًا «فإن كان ذمًّا كان مسُّهُ أوجع، ومِيسَمُهُ ألذع، ووقعهُ أشدّ... وإن كان حجاجًا كان برهانُهُ أنور، وسلطانُهُ أقهر، وبيانُهُ أبهر»[٣].

ويتأسس الجدل البلاغي عند معالجة غموض العلاقة واتساع أفق التأويل من حيث يجد القارئ موقعه بين جدل التخييل وجدل التداول، يقول «القُطامي»:

٧٦-فإنْ تُعزَلْ قُضاعة من مَعَدّ تَصِرْ تَبَعًا وللتّبع الصَّغارُ

٧٧-ويَلقوْا ثَرَّ شُخْب من مَعَدٍّ يَدرُّ لمَن يُشاركُه الغرارُ

والحجاج في هذه الصورة قائم على خصوصية التكوين، من حيث وضع الحجة أو الفرضيّة، في مقابل الدليل عليها الذي يجوس في مقصدية المبدع واهتماماته، ويبقى المتلقي متأملًا في خصوصية البناء الحجاجي كي يكشف عن ناطقية صاحبه.

وهنا يخرج الحجاجُ «بالتمثيل» عن النِّسق التصوُّريّ للوجه المشتَرَك إلى اتِّباع السُّلَّم الحجاجي، بدءًا من العُزْلَةِ (بالانفصال عن الأصل والعِرْق)، وما يستتبعها من ضآلةٍ وهوانٍ، مُقارَنَةً بالمعنى الراسخ في عقل (العربي/ البدوي) المنتمي لأصوله، فلا يخرج منها دون ما تبقَّى من أنفاسه، ثم يستدلُّ الشاعر بالشَّبيه من واقعه، وهو ما تبقى من الضِّرعِ بعد الحَلْبة، وما يكون من فضلٍ تبقّى للخوالف الذين قعدت بهم أصولهم.

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص٢١١.

(٢) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٥٣.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: أسرارُ البلاغة، ص١١٥.

لكن أروع ما أتى به (القُطاميُّ) من «التمثيل» الحجاجيّ، كان في قوله:

٨١-ومـــن يَنـــزعْ أَرُومَتَـــه لأُخـــرى فـــذاك لثابـــت الأصـــــل اعْتِقـــارُ
٨٢-كمـــا الزيتـــونُ لا يَمّـــازُ نَخْلًـــا ولا الجَبّـــارُ تُبْـــدَ لَـــهُ صُـــحارُ
٨٣-ولا التمرُ المُكمَّمُ حـــولَ حمـــص إذا مـــا حانَ مـــن هَجَـــرَ الجِـــزارُ

تلك الحجاجية التي يستدعي فيها متخيَّرَهُ من «ألفاظ الكلام» فـي مكـوِّن كبيـر وواحد، [ينزع – أرومة – اعتقارُ – لا يمَّازُ- ولا الجبّـارُ – وصُـحار – والمُكمَّـم – والجزارُ] ثم يقيم الأدلة على صحة الحجاج بوضعها في سُلَّم الحجاج [القطع ← الفـرز والعزل ← ثم البحث عن هويَّة]، الذي ينتهي إلى اجتمـاع الهـوان والـضعة علـى «قُضاعة» لإنكارها الانتماء إلى أصلها (الذي كنى عنه بالأرومـة)، أو الجـدِّ الأعلـى «مَعَدّ»، فصارت رعية بانتسابها إلى قبيلة يمنية، وذلك الذي يتبرأُ من أصـله وينخلـع عنه، كمن قطعت (أو عقرت) قوائمه فلا يبلغ مراده. ثم يقيم عليهم الحجة الكبرى مـن خلال الوجه الآخر للصورة، (فشجر الزَّيتون لا يصير نخلًا، والنخل العالي لاينبتُ إلّـا في صُحار)؛ كما أن التَّمر المميَّز (في أكمامه) لا يطلب في حينه من (حمـص) وإنمـا يكونُ في (هَجَر)، ولكلٍّ نبتُهُ وأصلُهُ.

ويلجأُ «القطاميُّ» إلى الكناية وسيلة للإقناع، وينوِّع من حججه البلاغية، ويـصنع من لغته واقعًا يجتذب متلقّيه بما يستدعيه من مفاهيم راسخة فـي الوجـدان العربـي، ويوظّف «الكناية» إلى جوار «التشبيه» ليصنع رمزًا،أو رابطًا خفيًّا وسـائطيًّا موحيًـا ينتظم الصور[1]، من أجل إثبات صفة الاطمئنان من خلال الرَّبط بين ما هو متحقق في الخارج، وما يُحيل إليه من دلالة في الدَّاخل، فيقول في خلوِّ الديار من أهلها، وعمرانها البديل عن أهلها:

٣- خَلَتْ غيرَ الظباءِ بهـا وعِـــين وظِلْمـانِ النعـامِ لهـــا عِـــرارُ

والحجاجُ بالكناية في الأصل (حجاجُ لغة)، وبرهنةٌ على اللازم مـن اللفـظ، أو (المقْتَضَى)، وليست كما الحجة العينية، لأنها تعتمدُ على قدرة الـشاعر علـى تهيئـة

(١) ساسين سيمون عساف: الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسـات والنشر، ط١، ١٩٨٢، ص٤٧.

المُتلقّي نفسيًّا وذهنيًّا لمقولاته الظنِّية حتى يصل إلى الغاية من العدول بالألفاظ عن معناها الظاهر الذي تؤديه بدلالاتها الوضعية إلى المعنى الخفيِّ الذي يُراد بالأسلوب ويتوارى خلفه؛ حيث يستبدلُ الشاعرُ الوحشة المقرونة بخلوِّ المكان من ساكنيه (بأنس) المكان الذي ترتَع فيه الظباء وحمرُ الوحش والنعام لاستشعارها الأمان، وهو ما يُخفِّف عنه وطأة الفراق بحضور الجمال الطبيعي بديلًا عن الجمال الأنثوي.

ثم يحاجج «بالكناية» عن الكرم المتأصّل في «تغْلب»، بقوله:

٨٦-إذا الرِّيحُ الشّآميَةُ استحنّتْ وَلَعْبَ بهـا مع الليل العصارُ

٨٧-فأُدْبَتُنا الجوافِلُ كلَّ يوم وبعضُ الناسِ أُدْبَتُه انْتِقارُ

ويتجلى الوجه الحجاجي في الفراغ الذي يملؤه المتلقّي، ويتوصَّلُ إليه عن طريق الاستدلال، «الذي يقتضي ضروبًا من الملازمات بين المعاني الأُوَل والمعاني الثواني، تجعل معنى اللفظ دليلاً على معنى آخر هو مراد المتكلم والغرض من القول»[(١)]، وحين ينظر المتلقّي في الغرض وما ينطوي عليه الأسلوب من معنًى خفيٍّ لم يذكره بالمواضعة اللغوية، وينسحب الذهن إلى اللزوم أو المقتضى القابع في صُلْب الملفوظ الذي لم تُفْض إليه الدلالة اللغوية.

فإذا اشتدَّت (ريحُ الشام) الباردة الجافة في زمن القحط والجدْب، كانت الكنايةُ الأولى في كونها رمزًا لشدَّة الوقت وجفافه، وهذا الرمز تعزيز للكناية الأصلية عن «عظم الكرم» حين وقت الشدَّة، فإذا ما انعطفت الرِّيحُ، كان التوقِّي من خطرها وإهلاكها، بطلب الإيواء والرِّفد والقِرى، الذي لا يجدونه إلّا في «معدّ» التي تسع مآدبهم للجميع، ولا يستثنون أحدًا، في حين تختصُّ بيوتات أخرى بعضهم دون بعض.

ويُطلق ابنُ الأثير على هذا النوع من الحجاج ما يُسمَّى بالإرداف[(٢)]، بأن يكون المعنى المذكور مرادفًا للمقصود، ويأتي في جواب الشرط، كما في هذا المثال، ومثلُ هذه الحال لا تحبس الكريمَ عن كرمه، ويبقى الباعث الأول للحجاج هو الاختلاف بين

(١) راجع: شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط٢، ٢٠١٠، ص١٥٧.

(٢) ابن الأثير (ضياء الدين): الجامع الكبير، تحقيق وتعليق: مصطفى جواد، و جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م. ص١٦٠- ١٦٣.

صورتي المعنى (أو المعنى ومعنى المعنى)- كما رأينا عند (برلمان)- فيما هو مرجَّح، ومُمكنٌ ومحتَمَل.

٤-ب- حجاجية الأسلوب الإنشائي:

يتميز الأسلوب الإنشائي خاصة بـ«طاقة حجاجية» كبيرة؛ من حيث إنه يستنفر فكر المتلقّي، ومشاعره، بما يطرحه من تساؤلات تحرِّك الفكر، وتهُزّ ثوابته أحيانًا، وبما يتضمنه من «طلب» إنجاز أمور، أو «الكشف» عنها، أو «تمنّي» وقوعها... إلخ. وكل ذلك مما يلفت الانتباه، ويستثير المشاعر.

وعلى ذلك، فإن «البنية الحجاجية» للتواصل اللغويّ عامة- ومنه «الإبداعي»- كثيرًا ما تتأسس على الأسلوب الإنشائي، أو تنهض على ركائزه في المقام الأول(١).

وقد وظَّف «القُطاميُّ» الأسلوب الإنشائي في قصيدتنا هذه توظيفًا حجاجيًّا للبرهنة على أمور متعددة. ومن ذلك:

١٥- وقلتُ لصاحبيَّ ألا اصْبَحاني لتُسْلِيَ عَبْرتي راحٌ عُقَارُ

١٦- فَشَعشَعَ بالإداوة شَرْمحيٌّ وليس بنا وإنْ جَهَدَ انتظارُ

توظيف حجاجي للأمر (اصبحاني) وعلّته (لتسلى عبرتي...)، وجوابه (فشعشع...)، لإبراز ما أحوجه إلى تناول الخمر، وهو الرغبة في التسلّي عما حلّ به من حُزن و«يأس» جرّاء ارتحال محبوبته.

وفي سياق بثّ الشاعر قلقه من «حوادث» تعتري قبائل «مَعَدٍّ»، وتُحدث «صدوعًا» بينهم، يشرع الشاعر في استحثاث كبار قبيلة «قريش» على التدخل لجبر هذه الصدوع موظّفًا أسلوب الاستفهام، ومحاججًا بمايلي:

٣٤- فأينَ ذَوو البطاح ذُرَى قريش وأحلامٌ لَهمْ ما تُستعارُ

٣٥- ونحنُ رَعيَّةٌ وهمُ رُعاةٌ ولولا رَعيُهُم شَنَعَ الشَّنارُ

٣٦- فإن لم تأتَمر صُلْحًا قريشٌ فليس لسائر العَرَب ائْتمارُ

٣٧- وفضَّلهمْ بإذن الله صَبرٌ وضَرْبٌ للأعادي واحْتِقارُ

(١) انظر: د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي ص١٣٩- ١٤٠، ١٤٧، ود. عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب ص٤٨٣- ٤٨٥.

فمن هذه الحجج (السببية) أن لأبناء هذه القبيلة (قريش) عقولًا راجحة، تميّزوا بها خِلْقَةً، لا اكتسابًا، ولا استعارةً من آخرين وهم السادة وسائر العرب رعية لهم، بالإضافة إلى صبرهم في ساحات القتال، وبراعتهم فيه. فإن لم ينهض القرشيون بأمر إنجاز الصُّلح، ورَأب الصدع، فمن ذا الذي ينهض بذلك عِوضًا عنهم؟!

ثم يوظّف الشاعر أسلوب النداء باسم الفعل الأمر (هَلُمّ)، ثم بأسلوب الاستفهام (ألم – يُخز...) ليحاجج عن أهمية إنجاز التصالح بين أبناء قبيلته، وبيان العواقب المستوخمة للفرقة:

٣٨- فيا قومي هَلُمَّ إلى جميع وفيما قد مَضَى كان اعتبارُ
٣٩- ألم يُخْزِ التفرُّقُ جُنْدَ كسرى وأَجْلَوْا عن مدائنهم فطاروا
٤٠-وشُقَّ البَحرُ عن أصحاب موسى وغُرِّقَت الفراعنةُ الكفارُ

فهو يسوق «حججًا» تاريخية بما حَلّ بجند كسرى، وبما حلّ بجند «فرعون» من غَرَق حين كفروا بدعوة «موسى»- عليه السلام - ثم يوالي سرد «الحجج»؛ فيذكر ما حلّ بقوم نوح- عليه السلام- حين لم يؤمنوا به وتفرقوا عنه:

٤٣-فأُنذرُكم مصائرَ قوم نوح وكانت أُمّةً فيها انتشارُ

وقوله «فأنذركم» خبرٌ وظَّفه الشاعر توظيفًا إنشائيًا حجاجيًا (=احذروا) لبيان المغبَّة المهلكة للفرقة وتنكُّب الوحدة وأسبابها.

ويعود الشاعر إلى توظيف النداء المقرون بالأمر توظيفًا حجاجيًّا، في خطابه لقبيلة «كلب» مستحثًّا إياها على الوحدة مع قبيلته «تغلب»، وداعيًا إياها إلى الكف عن دعوى الانتساب إلى «اليمن»، لا إلى «مَعَدّ»؛ فإنها دعوى كاذبة، تجلُب العار على القائل بها، كما أن كبارهم يعلمون حقيقة انتسابهم إلى «مَعَدّ»:

٥٤-أكلبُ هَلُمّ نحنُ بنو أبيكُم ودَعْوى الزُّور مَنقَصةٌ وعارُ
٥٥-وقد علمَتْ كهولهُمُ القُدامى إذا قَعَدوا كأنَّهُمُ النّسار
٥٦-بأنّ قُضاعةَ الأولى مَعَدٌّ لِقَرْم لا تَغِطُّ له البِكارُ

ويواصل الشاعر «الحجاج» في مسألة «الانتساب القبلي» هذه لقبيلة «كلب»، فيكرّر استعمال أسلوب الأمر وجوابه مستهلًا به تعداد «الحجج» التي إن وضعتها «كلب» في الحسبان، لتخلت عن دعوى الانتساب إلى اليمن:

٦١-هَلُمّ فعندنا عَدْلٌ ونِصْفٌ وأحكامٌ تُسَدُّ بها الثّغارُ

فالقبائل المعدّية هم أهل العدل، والإنصاف، والحِكْمة التي تُعالَج بها المعضلات. ثم شرع الشاعر في الأبيات التالية [٦٢- ٧٤] يعدِّد المزيد من «الحجج» لإنجاز الهدف المُبتغى، وهو «إقناع» قبيلة «كلب» بالعدول عن دعوى الانتماء القبلي لليمن:

- فإنهم إن ارتضوا الانتساب إلى مَعَدّ، فستربطهم بـ«تغلب» آصرة نسب، لن يبادر التغلبيون أبدًا إلى قطعها:

٦٢-وإن يَعطفكُمُ نَسَبٌ إلينا فليسَ عليكُمُ منّا ظهارُ

- ثم إنكم سيحقُّ لكم الفخر برؤساء قبيلة «تغلب»، وأجدادها الأقدمين، وعلى رأسهم «نزار بن معد»؛ فهو فارس الفرسان والفروسيّة:

٦٣-أبونا فارسُ الفُرسانِ علْقَتْ بكَفَّتِه الأعِنّةُ والغِوارُ

- كما أنهم سيشاركون التغلبيين في تراث المجد والعِزّ الذي خلّفه لهم جدّهم الأكبر «مَعَدّ» [٦٤- ٧٠]. وهو التراث الذي يكفيه شرفًا وجود بعض الأنبياء في سلاسل نسبه:

٧١-ومنّا الأنبياءُ وكُلُّ مَلْكٍ وأحكامُ الأئمةِ حيثُ صاروا

ويُلاحَظ – بعد- أن دعوة «القُطامي» لأبناء قبيلته بالتصالح فيما بين أنفسهم، ودعوته للقبائل الأخرى بالتصالح مع قبيلته، يمثل محورًا رئيسيًّا دار حوله شطر كبير من شعره، محاججًا عن أهمية ذلك بحجج تاريخية، ودينية، وتشبيهيّة، وغيرها مما سبق ذكره؛ يقول د. محمود الربيعيّ: «فنحن نرى من أخلاق القُطامي أنه محبّ للسلام، حريص على اجتماع الشمل، سواء كان ذلك في الدائرة الموسَّعة دائرة القبائل... أو كان ذلك في داخل القبيلة؛ وهنا نرى الرجل أكثر حِرْصًا على ألا يُصبح الشمل بددًا؛ فهو يُلحّ على هذه الناحية إلحاحًا متكرّرًا، ويعيدها في صور مختلفة»[(١)].

(١) ديوان القُطامي (جزء الدراسة) ص١٣٩.

خاتمـــــــــة

الحمد لله! وبعد...

فقد كان الهدفُ من هذه الدراسة – كما تبدو من عنوانها – هو البحث في وسائل التشكيل الصياغيِّ والتصويريِّ في رائية (القُطاميِّ)، والكشف عن فاعليتها في التـأثير والإقناع الحجاجي؛ وقد اتَّخذ الخطابُ الشِّعريُّ في رائيته نمطين من أنمـاط التواصـل الإقناعيّ، هما: الحجاج «اللغوي»، والحجاج «التمثيليّ» أو التخييليّ في صوره البيانيـة والمجازية والإنشائية. وبعد أن قام الباحث برصد الأنساق أو «المحـاور» الحجاجيـة الأساسيّة التي اشتملت عليها القصيدة، وتحليل الأساليب التي تندرج في إطارها، وبيـان خصائصها من حيث التأثير والإقناع، ومدى ارتباطها بمقصدية الشاعر، فقد خلُص إلى النتائج الآتية:

١- أنَّ الشاعر قد برهن بالحُجة «السببية»- المؤسسة على بنية الواقع – على مواقف متعددة، كما جمعت تلك الحجج السببيَّة بين صفات دنيويـة، وخلقيـة، وأخـرى تاريخية دينية.

٢- أنَّ القصيدة تضمَّنت إلى جانب الحُجج السببيَّة حُججًا أخرى موضوعية في أثنـاء محاورها الأساسيَّة، مثل: حُجة «السلطة»، وهي من الحجج المؤسَّسة على بنيـة الواقع، وتنهض على ما يتحلَّى به المتكلِّم من هيبة، أو سطوة، أو نفوذ.

٣- أنّه وظَّف الحجاجَ اللغويَّ، والمقدِّمات السياقية آليَّةً للتأثير والإقناع فـي إبـراز المواقف الحجاجيَّة مستعينًا بالأدوات والروابط التداوليَّة، كما عزَّز حجته اللغويـة مستعينًا «بالتناصّ» الذي يؤدي دورًا مهمًّا في تشكيل حيِّز الـنصِّ، فـضلًا عمـا يُمثِّلُهُ من صيغة تواصلية بين ذاكرة المبدع وذاكرة النص وذاكرة المتلقّي.

٤- أنَّ حُجَّة «التمثيل» - في صورها المختلفة – كانت هي الأبرز في التأسيس لبنية الواقع، والأكثر التصاقًا بطبيعة الشاعر، ومضمون خطابه، حيث وظَّفها للبرهنـة على وجاهة ما يعرضه، أو يذهبُ إليه من آراء ومواقف.

٥- أنَّ الأسلوب الإنشائي في قصيدته يتميَّز بطاقة حجاجية كبيرة من حيـث يـستنفر فكر المتلقّي ومشاعره بما يطرحُه من تساؤلات ضمنية تحرك الفكـر وتهزهـز ثوابته أحيانًا.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الأثير (ضياء الدين): الجامع الكبير، تحقيق وتعليق: مصطفى جواد، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م.

٢- إدريس مقبول: الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٠م.

٣- أبو بكر العزاوي:

- الحجاج في اللغة والبلاغة، مجلة فصول، العدد رقم (١٠١)، خريف ٢٠١٧م.
- اللغة والحجاج، الدار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
- الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب، بيروت، ٢٠٠٧م.
- حوار حول الحجاج، دار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.

٤- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.

٥- جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٦- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٧م.

٧- حميد لحمداني: التناص وإنتاجية المعنى، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ٢٠٠١م.

٨- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

٩- رولان بارت: درس السيميولوجيا، ترجمة: عبد السلام عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٧م.

١٠- ساسين سيمون عساف: الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١١- د. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.

١٢- شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط٢، ٢٠١٠م.

١٣- عبد القاهر الجرجاني:

- أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة والقاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة والقاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.

١٤- عبد الله صولة:

- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، ٢٠١١م.

١٥- عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية لغوية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٤م.

١٦- فريدة بن عاشور: حجاجية الاستعارة في شعر النقائض: جرير والفرزدق أنموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسطنطينة، الجزائر، العدد (٤٦)، ديسمبر، ٢٠١٦م.

١٧- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م.

١٨- القُطامي (عمرو بن شييم):

- ديوانه، تحقيق: محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ديوانه، تحقيق: د/ إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

١٩- كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي -ﷺ-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٢م.

٢٠- د.محمد البقالي: المقاربة الحجاجية لكتابات الجاحظ، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (١٧٣)، يناير ٢٠١٨م.

٢١- محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٢م.

٢٢- د. محمد مشبال:

- النص الأدبي القديم من الشعرية إلى البلاغة الحجاجية، ضمن كتاب: التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف د. أحمد قادم، ود. سعيد العوادي،كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٦م.

- التحليل البلاغي الحجاجي للخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد (١/٢٥)، العدد (٩٧)، ٢٠١٦م.

٢٣- المرزباني (محمد بن عمران): الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر (د.ت).

٢٤- المُصعب الزُّبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله): كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

٢٥- هانز روبريثت: متداخل النصوص، ترجمة: الطاهر الشيخاوي، ورجاء بن سلامة، مجلة الحياة الثقافية، تونس، (٥٠/ ١٩٨٥م).